

ذكر الله

الاستغفار

الرضا بالقضاء

لتواضع

خفض الجناح

تأليف
مصطفى العدوي

الناشر
دار ماجد عسيري
للنشر والتوزيع جدة
هاتف : ٦٦٣١٤٠٣


بسم الله الرحمن الرحيم


شفاء القلوب

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م

رقم الإيداع بدار الكتب

٩٧/٩٩٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده اللَّه فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد ألا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب اللَّه، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر

الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، وبعد :

فهذه رسالة نافعة إن شاء اللَّه تتعلق بالقلوب وما يعتريها من آفات وأمراض وأدواء ، وعلاج هذه الآفات والأمراض والأدواء من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ ، وقد كانت هذه الرسالة موضوع محاضرة بعنوان « شفاء القلوب»، ألقيت في عدة مدن ثم قمت بتنقيحها وتهذيبها وتخريج أحاديثها، مع بعض الإضافات التي أراها تتناسب مع موضوع الرسالة، وتحدث في القلب رقة بإذن اللَّه ، وذلك بإيراد طائفة من أحاديث الرقاق الثابتة عن رسول اللَّه ﷺ في ثنايا هذه الرسالة ، وأيضًا أوردت طائفة من سير السلف الصالح من الصحابة وغيرهم لعلها تحدث في القلب رقة ، وأوردت أيضًا أنواعًا من الأدوية والمقويات العامة التي يستعين بها العبد لتقوية قلبه ، ونبهت فيها على أمورٍ ينبغي ؛ بل يجب أن تُتقي وتُحذر حتى يسلم للعبد قلبه ويلقى ربه بقلب سليم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى اللَّه بقلب سليم .

فإلى موضوع الرسالة ، وأسأل اللَّه أن يشفي بها صدور قوم مؤمنين .

وصلى اللَّه وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه .

كتبهـــا

أبو عبد الله / مصطفى العدوي

مصر ـ الدقهلية ـ منية سمنود

أثر سلامة القلب على سعادة المرء في الدنيا والآخرة

لسلامة القلب عظيم الأثر في سعادة المرء في الدنيا والآخرة ؛ فلا يكاد العبد ينتفع بشيء في دنياه وأخراه أعظم من انتفاعه بسلامة قلبه ، سلامته من الشرك والنفاق والرياء والكبر والعجب وسائر الأمراض التي تعتريه، ولا أعني أمراض البدن التي منها أمراض القلوب ، وإنما أعني تلكم الأمراض التي تعتري القلب مما يتعلق بدينه ؛ فهي أعظم الأمراض فتكًا على الإطلاق وأشدها تدميرًا وأسوأها أثرًا ؛ بل وليست هناك مقارنة على الإطلاق بين مرضٍ بدني يعتري القلب ويحتاج إلى بعض الأدوية والمسكنات ، وبين مرض يجرح دينه ويُذهب تقواه .

● فالأخير يجلب على العبد نكدًا وهمًّا وغمًّا وعذابًا في الدنيا والآخرة.

أما الأول فقد يُثاب عليه العبد المؤمن إذا صبر واحتسب ، كسائر الأرض التي يُثاب عليها المؤمن إذا صبر واحتسب كما جاء عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « **ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ـ حتى الشوكة يشاكها ـ إلا كفَّر اللَّه بها من خطاياه** »[1] .

ولكن من قصور نظر الخلق وقلة أفهامهم وضيق مداركهم لا يُولون الأهم والأخطر ـ وهو المرض المتعلق بالدين ـ أدنى أهمية ، وفي المقابل

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٦٥٤١ ، ٥٦٤٢) ومسلم (حديث ٢٥٧٣) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنهما عن النبي ﷺ .

إذا شعر أحدهم بأي مرض عضوي يعتري قلبه من قلة نبضات أو سرعتها أو أي نوع من تلكم الأمراض؛ فإنه يبادر وبسرعة بالذهاب إلى الأطباء، ويسأل عن أعلم أهل الطب بطب القلوب ، ويبحث عن أكثرهم مهارة وأحذقهم تطبيبًا ، ولم يدخر وسعًا في الذهاب إليه ، ولو كلَّفه ذلك الغالي والنفيس من دنياه .

وخفي على هؤلاء أن هذه الحياة الدنيا إنما هي سنوات قليلات وأيام معدودات وبعد ذلك فهنالك الدار الآخرة التي هي الحيوان[1] لو كانوا يعلمون ، تلكم الدار التي يحتاج القرار فيها إلى سلامة القلب من الشرك

---

(١) أي الحياة الدائمة الباقية .

ولأهل العلم أقوال في المراد بالقلب السليم :

أحدها ، والذي عليه الأكثرون : أنه القلب السليم من الشرك والشك ، وقد نقل القرطبي هذا القول عن أكثر المفسرين.

والمراد بسلامته من الشك: أن يعلم أن اللَّه حق، وأن الساعة قائمة، وأن اللَّه يبعث من في القبور .

أخرجه الطبرى بإسناد صحيح عن عون قال : قلت لمحمد (يعنى ابن سيرين): ما القلب السليم ؟ قال : أن يعلم أن اللَّه حق ، وأن الساعة قائمة ، وأن اللَّه يبعث من في القبور.

وقال الطبرى : والذي عُني به من سلامة القلب في هذا الموضع : هو سلامة القلب من الشك في توحيد اللَّه ، والبعث بعد الممات.

وأخرج الطبرى بإسناد صحيح عن ابن زيد قال : سليم من الشرك؛ فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد .

الثاني : أن المراد بالسليم: الخالي من البدعة ، المطمئن إلى السُّنة.

الثالث : أن المراد بالسليم : السليم من آفة المال والبنين .

الرابع : السليم : الخالص

والنفاق والعجب والرياء وسائر الأمراض التي نحن بصدد الحديث عنها لخطورتها وسوء أثرها .

● قال خليل الله إبراهيم ﷺ :﴿وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩]

● قلبٌ سليمٌ من الشك والشرك والشقاق والنفاق !!، سليم من الغل للذين آمنوا !!

سليم من الرياء ـ سليم من الأحقاد !

سليم لم يُصب بالقسوة ولم يختم عليه بالأختام !

سليم لم يتلوث بآثار الجرائم والذنوب والمعاصي .

= وقال بعض أهل العلم : إن المراد بالسليم اللديغ ـ كما في حديث إن سيد هذا الحى سليم أي لديغ ـ ، قالوا : والمعنى أنه كاللديغ من خوف الله .

وهذا هو **القول الخامس** ، وقد طعن في هذا الوجه صديق حسن خان في تفسيره « فتح البيان » بقوله : وهذا تحريف وتعكيس لمعنى القرآن.

القول السادس : ووصفه الرازي بأنه أصح الأقوال : أن المراد منه : سلامة النفس عن الجهل والأخلاق الرذيلة .

القول السابع : أنه سليم من موالاة المشركين وحبهم .

أما القرطبى فإنه اختار أن المراد بالقلب السليم: أنه القلب الخالص ، قال : وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن ، أي : الخالص من الأوصاف الذميمة، والمتصف بالأوصاف الجميلة ، والله أعلم.

قلت : والقول بالتعميم قول جيدٌ وله وجاهته؛ فالقلب السليم: سليم من الشرك وموالاة أهله، وسليم من الشرك، وسليم من البدعة، وسليم من الذنوب والمعاصى، وسليم من الأغلال، وسليم من الأحقاد ومتصف بالأوصاف الجميلة، وخالص من الأوصاف الرذيلة ، وهو قلب خائف وَجِلٌ من ربِّه عز وجل، والله أعلم .

ولم يتدنس بالبدع والخرافات والأوهام وظن السوء .
سليم يحمل كل هذه المعاني .

● هذا هو القلب الذي ينفع صاحبه يوم القيامة، كما انتفع الخليل إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧]، إبراهيم الذي ابتلاه اللَّه بكلمات فأتمهن فجعله اللَّه للناس إمامًا ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]

● بصلاح هذا القلب يصلح سائر الجسد، كما قال النبي ﷺ : « **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب** »(١) .

● هذا القلب المنيب الذي يورث صاحبه الجنان وتقرَّب له وتُدنى ، قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١ - ٣٥]

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٥٢) ومسلم (حديث ١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير ـ رضي اللَّه عنه ـ قال سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس . فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمًى ، ألا إن حمى اللَّه في أرضه محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب**».

● قال الحافظ ابن حجر رحمه اللَّه « فتح الباري » (١٢٨/١) : « وخصَّ القلب بذلك لأنه أمير البدن ، وبصلاح الأمير تصلح الرعية ، وبفساده تفسد ، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب ، والحث على صلاحه ، والإشارة إلى أن لطيب الكسب أثرًا فيه » .

● هذا القلب المليء بالخير سبب في الفتح في الدنيا ، وسبب في الخير في الدنيا أيضًا .

قال اللَّه تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ** ﴾[الأنفال: ٧٠] فانظر إلى الآية الكريمة ، كفارٌ أُسروا ووقعوا في الأسر في أيدي المسلمين فمنهم من يقول إني كنت مسلمًا وكان في قلبي خير ؛ فقال اللَّه لنبيه ﷺ : ﴿ **قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٧٠]

فاللَّه يؤتي الخير بناءً على الخير الذي في القلوب .

وهو سبحانه يغفر الذنوب ـ للخير الذي في القلوب ﴿ **وَيَغْفِرْ لَكُمْ** ﴾.

● وهاهم أصحاب نبينا محمد ﷺ كيف نزلت عليهم السكينة وبما نزلت بعد توفيق اللَّه سبحانه لهم ؟!!

قال اللَّه سبحانه : ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح: ١٨]

فانظر إلى قوله تعالى : ﴿ **فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا** ﴾ [الفتح: ١٨، ١٩]

فلما علم اللَّه ما في قلـــوب أصحاب نبيه ﷺ .

أنزل السكينة عليهم !!!

وأثابهم فتحًا قريبًا !!!

ومغانم كثيرة يأخذونها !!!

كل هذا لما علمه اللَّه من الخير الذي في القلوب .

● وانظر كذلك إلى فائدة تعلق القلب بالمساجد قال النبي ﷺ[١]: «سبعة يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله.... ورجل قلبه معلقٌ في المساجد» .

● **فالخيرات والبركات والنصر والفتوحات كل ذلك يتنزل من عند اللَّه سبحانه على قدر ما في القلوب من خير .**

● **وكذلك رفع الدرجات وعلو المنازل ووراثة الجنان كل ذلك من عظيم أسبابه ما في القلوب من خير .**

● **واللَّه سبحانه وتعالى ينظر إلى القلوب والأعمال** ، ويُجازي عليها ويثيب ويعاقب ، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة[٢] رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم** » .

● وفي رواية لمسلم[٢] من حديث أبي هريرة أيضًا قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد اللَّه إخوانًا ، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى هاهنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات.......** ».

فيا سبحان اللَّه ما أسعد أصحاب القلب السليم .

● هنيئًا لهم هؤلاء الذين وحَّدوا اللَّه ولم يشركوا به شيئًا ولم يراءوا ولم ينافقوا .

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٦٦٠) ومسلم (مع النووي ٧/ ١٢٠) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه مرفوعًا .

(٢) مسلم (ص١٩٨٧) .

(٣) مسلم (حديث ٢٥٦٤) .

● هنيئًا لهم هؤلاء القوم الذين باتوا وليس في قلوبهم غلٌّ للذين آمنوا.

● هنيئًا لهم هؤلاء الذين أحبوا للمؤمنين ما أحبوه لأنفسهم .

● هينئًا لهم هؤلاء الذين حافظوا على قلوبهم ولم يلوثوها. بذنوب ترسب عليها السواد والنكت والران والختم .

● هنيئًا لهم هؤلاء الذين اطمأنت قلوبهم بذكر اللّه.

● طوبى لهؤلاء وحسن مآب.

● يكاد أحدهم يطير في الهواء من سعادته وخفة قلبه وهو يحب للمؤمنين الخير وقلبه نظيف من الذنوب والمعاصي، وقلبه سعيدٌ لحلول الخير على العباد.

هنيئًا لهم هؤلاء الرحماء أرقاء القلوب لذوي القربى والمسلمين !!

*** وكذلك العقوبات والمؤاخذات(١) كمٌّ كبير منها ينبني على ما في القلوب :**

● قال اللّه تعالى : ﴿ **وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ** ﴾ [البقرة: ٢٢٥]

---

(١) وها هو بحث مختصر في ذلك .

وردت عدة أدلة تفيد أن من حسنت نيته ، ولو لم يعمل كثير عمل وكانت أعماله ؛ فإنه يُثاب وترفع درجته ، ومن هذه الأدلة ما يلي :

قول النبي ﷺ : « **إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم** » قالوا : يا رسول اللّه وهم بالمدينة ؟! قال « **وهم بالمدينة ، حبسهم العذر** » ، وفي رواية: «**إلا شركوكم في الأجر** » ، وفي رواية: « **حبسهم المرض**»

أخرجه البخاري (٤٤٢٣) ومسلم (١٩١١) من حديث أنس رضي اللّه عنه.

ومنها: قول النبي ﷺ : « **المرء مع من أحب** » .

أخرجه البخاري (٦١١٦٨) ومسلم (٢٦٤٠) من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.=

= ومنها : ما أخرجه البخاري (٧٥٠١) ومسلم (١٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **يقول الله : إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبُوها عليه حتى يعملها ؛ فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة. وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة** » .

وأخرج مسلم في « صحيحه » (حديث ١٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **قال الله عزَّ وجل: إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنةً ما لم يعمل ، فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها ، وإذا تحدَّث بأن يعملَ سيئةً فأنا أغفرُها له ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتُبها له بمثلها** » .

وقال رسول الله ﷺ :

« **قالت الملائكة : رب هذا عبدك يريد أن يعمل سيئة (وهو أبصر به) فقال : ارقبوه فإن عَمِلَها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنةً إنما تركها من جرَّاي**».

وفي رواية لمسلم (في طرق حديث ١٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ :

« **قال الله عز وجل : إذا همَّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتُها له حسنة ، فإن عملها كتبتُها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، وإذا همَّ بسيئة ولم يعملها لم أكتُبها عليه ، فإن عملها كتبتُها سيئةً واَحدة** » .

وأخرجه البخاري (٦٤٩١) ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال :

« **إن اللَّه كتب الحسنات والسيئات ثمَّ بيَّن ذلك فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها اللَّهُ له عنده حسنةً كاملةً ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسَنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة** » .

● وثمَّ أحاديث أُخر في الباب؛ فمن عقد العزم على الخير ، وأحب فعل الخير؛ جازاه الله خيراً على ما في قلبه، وكتب له الأجر والمثوبة . =

= • **أما بالنسبة لحديث النفس**؛ فقد وردت جملة أدلة تفيد أن اللَّه عز وجل تجاوز لهذه الأمة عما حدثت به أنفسها منها :

قول النبي ﷺ: «**إن اللَّه تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم**» أخرجه البخاري (٢٥٢٨) ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

• **أما بالنسبة لإصرار القلب على معصية اللَّه عز وجل** ؛ فعلى ذلك إثمٌ سواء أمضى ذلك الإصرار أم لم يمضه وعلى ذلك أدلة منها :

قول اللَّه تعالى : ﴿**إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ [الحجرات: ١٢]

وقول اللَّه تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**﴾ [النور: ١٩]

قول اللَّه تعالى : ﴿**وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٢٥]

قول النبي ﷺ : « **إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار** » أخرجه البخاري (٧٠٨٣) ومسلم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة رضي اللَّه عنه .

ولا يلزم أن تكون عقوبة من عقد العزم على المعصية متساوية مع عقوبة من باشرها .

• **أما إذا ترك الإصرار والعزم على المعصية ولم يمضهما فهو على أنواع** :

إما أن يكون ترك ذلك العزم والإصرار ابتغاء مرضاة اللَّه عز وجل ؛ فذلك يثاب ويشهد له رواية « **فاكتبوها حسنة فإنما تركها من أجلي** » ، وفي رواية: « **فإنما تركها من جراي** » ، وكلاهما مذكورة في حديث الباب.

ويتأيد ذلك بحديث الثلاثة الذين آووا إلى الغار وفيه : « **قال أحدهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إليَّ وإني راودتها عن نفسها فلما قعدت بين رجليها فقالت اتق اللَّه ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقمت وتركت المائة الدينار فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ففرج اللَّه عنهم** » .

أخرجه البخاري (٣٤٦٥) ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما عن النبي ﷺ .

وإما أن يكون ترك ذلك العزم والإصرار لحائل حال بينه وبين الفعل ؛ كمن يذهب يزني=

. . . .

= بامرأة فوجد الباب مغلقًا ولم يستطع فتحه، أو وجد شرطيًّا أو قريبًا للمرأة . . . فذلك يأثم والله أعلم .

وإما أن يكون **ترك ذلك** العزم والإصرار **سهوًا أو نسيانًا** ؛ فيعاقب على عزمه وإصراره لكنه بدرجة أقل من السابقة والله أعلم .

هذا حاصل ما وقفنا عليه وتوصلنا إليه بعد قراءة أقوال أهل العلم في هذه المسألة ، ولا بأس أن ننقل قول بعضهم :

• **قال النووي رحمه الله** (٣٣٦١) بعد أن ذكر الأحاديث: قال الإمام المازري رحمه الله: مذهب القاضي أبي بكر بن الطيب رحمه الله أن من عزم على المعصية بقلبه ووطن نفسه عليها أثم في اعتقاده وعزمه ، ويحمل ما وقع في هذه الأحاديث وأمثالها على أن ذلك فيمن لا يوطن نفسه على المعصية ، وإنما مر ذلك بفكره من غير استقرار ويسمى هذا همًّا ، ويفرق بين الهم والعزم . هذا مذهب القاضي أبي بكر وخالفه كثير من الفقهاء والمحدثين ، وأخذوا بظاهر الحديث.

قال القاضي عياض رحمه الله: عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدثين على ما ذهب إليه القاضي أبو بكر للأحاديث الدالة على المؤاخذة بأعمال القلوب، لكنهم قالوا: إن العزم يكتب سيئة ، وليست السيئة التي هم بها لكونه لم يعملها وقطعه عنها قاطع غير خوف الله تعالى والإنابة ، لكن نفس الإصرار والعزم معصية؛ فتكتب معصية، فإذا عملها كتبت معصية ثانية، فإن تركها خشية لله تعالى كتبت حسنة كما في الحديث « **إنما تركها من جراي**» فصار تركه لها لخوف الله تعالى ومجاهدته نفسه الأمارة بالسوء في ذلك وعصيانه هواه حسنة؛ فأما الهم الذي لا يكتب فهي الخواطر التي لا توطن النفس عليها ولا يصحبها عقد ولا نية وعزم ، وذكر بعض المتكلمين خلافًا فيما إذا تركها لغير خوف الله تعالى بل لخوف الناس هل تكتب حسنة ؟ قال : لا لأنه إنما حمله على تركها الحياء ، وهذا ضعيف لا وجه له.

هذا آخر كلام القاضي وهو ظاهر حسن لا مزيد عليه ، وقد تظاهرت نصوص الشرع بالمؤاخذة بعزم القلب المستقر، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** ﴾ [النور: ١٩] الآية، وقوله تعالى : =

● وهاهم أصحاب الجنة، أصحاب الحديقة والبستان الذين ابتلاهم اللَّه عز وجل عوقبوا عقوبة عاجلة في الدنيا لما أضمرته قلوبهم من شر وبخل كما حكى اللَّه سبحانه فقال : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٧ - ٢٠]

● وها هي طائفة من أصحاب رسولنا ﷺ ورضي اللَّه عنهم وعفا عنهم لما خرج بعضهم يريد الدنيا يوم أُحد كان إرادته سببًا في هزيمة إخوانه ، عفا اللَّه عن الجميع ، قال اللَّه سبحانه : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]

● فيا سبحان اللَّه ، كيف كانت إرادة الدنيا عند فريقٍ سببًا في هزيمته وهزيمة من معه !!

● وها هو رجل ـ الغالب عليه النفاق ـ لم ير المؤمنون منه نفاق ، لكن اللَّه يعلمه ويعلم ما في قلبه ، ذلكم الرجل كان يقاتل مع رسول اللَّه ﷺ ومع أصحاب رسول اللَّه ﷺ .

● كان جريئًا ـ كان شُجاعًا ـ كان مغوارًا.

● كان لا يدع للمشركين شاذة ولا فاذة إلا تبعها .

= ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] ، والآيات في هذا كثيرة ، وقد تظاهرت نصوص الشرع وإجماع العلماء على تحريم الحسد واحتقار المسلمين وإرادة المكروه لهم، وغير ذلك من أعمال القلوب وعزمها ، واللَّه أعلم.

- يقتل من المشركين الجم الغفير ويجرح فيهم ويطعن!!!
- ولكن اللَّه يعلمه ويعلم ما في قلبه ، ولذلك قال النبي ﷺ فيه « هو من أهل النار » !!

كاد المسلمون أن يرتابوا ؟؟ كيف هو من أهل النار ، وهو أشجعنا ؟! سبحان اللَّه هو من أهل النار؟

ولِما هو من أهل النار ؟ اللَّه يعلم ذلك ! هو سبحانه الحكيم الخبير هو العليم بما في الصدور ، هو العليم بما في قلب هذا الرجل .

- ها هي قصته ، وها هو شأنه :

أخرج البخاري ومسلم[1] من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا . فلما مال رسول اللَّه ﷺ إلى عسكره . ومال الآخرون إلى عسكرهم . وفي أصحاب رسول اللَّه ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة[2] إلا اتبعها يضربها بسيفه . فقالوا : ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان[3] . فقال رسول اللَّه ﷺ : « **أما إنه من أهل النار** » فقال رجل من القوم : أنا صاحبه[4] أبدًا . قال فخرج معه . كلما وقف

---

(١) البخاري (حديث ٢٨٩٨) ومسلم (حديث ١١٢) .

(٢) (لا يدع لهم شاذة) الشاذ والشاذة : الخارج والخارجة عن الجماعة . قال القاضي عياض رحمه اللَّه : أنث الكلمة على معنى النَّسمة . أو تشبيه الخارج بشاذة الغنم . ومعناه أنه لا يدع أحدًا ، على طريق المبالغة . قال ابن الأعرابيّ : يقال فلان لا يدع شاذة ولا فاذة، إذا كان شجاعًا . لا يلقاه أحد إلا قتله .

(٣) (ما أجزأ منا اليوم أحد ما أجزأ فلان) معناه : ما أغنى وكفى أحد غناءه وكفايته.

(٤) (أنا صاحبه) كذا في الأصول . ومعناه : أنا أصحبه في خفية ، وألازمه لأنظر السبب الذي به يصير من أهل النار.

وقف معه . وإذا أسرع أسرع معه . قال : فجرح الرجل جرحًا شديدًا . فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه[١] ، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه ، فخرج الرجل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال : أشهد أنك رسول اللَّه . قال : « **وما ذاك ؟** » قال : الرجل الذي ذكرت أنفًا أنه من أهل النار فأعظم الناسُ ذلك فقلت : أنا لكم به ، فخرجت في طلبه حتى جرح جرحًا شديدًا ؛ فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه . ثم تحامل عليه فقتل نفسه . فقال رسول اللَّه ﷺ ، عند ذلك : «**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار. وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة** » .

- فعياذًا باللَّه ما أشقى هؤلاء أصحاب القلوب الخبيثة !!
- ما أشقى هؤلاء الذين حملوا بين جثمانهم قلوب الشياطين[٢] !! .
- ما أتعس هؤلاء الذين أشركوا باللَّه مالم ينزل به سلطانًا !!
- ما أتعس هؤلاء الذين نافقوا وخدعوا المؤمنين والمؤمنات !!
- ما أشد عذاب هؤلاء الذين امتلأت قلوبهم بحب شيوع الفاحشة في الذين آمنوا ، فادُّخر لهم العذاب الأليم في الآخرة فضلاً عما عجل لهم منه في الدنيا !!

(١) « ذبابه » ذباب السيف هو طرفه الأسفل . وأما طرفه الأعلى فمقبضه(نقلاً عن حاشية مسلم) .

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (ص١٤٧٦) من حديث حذيفة رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال : « **يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهُداي ولا يستنون بسنتي ، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس..** » .

● فإلى هؤلاء الذين اشتعلت قلوبهم بنار الغِلِّ وامتلأت بنار الحسد والكبرياء ، هلموا يا هؤلاء إلى إخماد هذه النيران وإطفائها من قبل أن تستعر في أجوافكم فتُمزق القلوب وتحرق الأجساد !!!

● إلى هؤلاء الذين منعهم الحقد على العباد من النوم وجعلهم يتقلبون على الفُرُشِ طيلةَ ليلهم ، هلموا إلى ما يجلب لكم النوم ويحقق لكم الراحة!!

● إلى مَنْ حسدوا الناس على ما آتاهم اللَّه من فضله ، وأرادوا أن يتحكموا في أرزاق اللَّه وفي أقدار اللَّه وفي تدبير اللَّه ففشلوا في ذلك ولم يستطيعوا منع رزق اللَّه عن أحدٍ ولا جلب ضرٍّ لأحد ، فباتوا وقلوبهم مضطربة ، وقلوبهم قلقة ، وقلوبهم ملوثة ، وقلوبهم مدنسة ألا فأقبلوا يا هؤلاء على ما يُسكِّن القلوب ويُهدئ الفؤاد .

● إلى مَنْ أشركوا باللَّه مالم يُنزل به سلطانًا فأُلقي في قلوبهم الرُّعب!!

● إلى مَنْ نافقوا وخادعوا وأقبلوا على الرياء والسُّمعة وعملوا للناس ولم يعملوا للَّه فحبطت أعمالهم وذهب ثوابها !!

● ألا فليعلم جميع هؤلاء أن اللَّه يعلم ما في قلوبهم فليحذروه !!

● ألا فليعلم هؤلاء أن اللَّه عليم بذات الصدور فليصلحوها !!

● ألا فليعلم هؤلاء أن هناك نار تطلع على الأفئدة ـ كما قال تعالى :

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾

[الهمزة: ٥ - ٧]

● إنها نار يطلع لهيبها إلى الفؤاد فيحرقه .

● إنها نار ترى النيات الخبيثة والعقائد الخبيثة والأمراض الخبيثة في القلوب فتحرق تلك القلوب عياذًا باللَّه.

فنداء ، واستصراخ قبل أن تحرق هذه القلوب.

● فجديرٌ بالعبد أن يتجه إلى إصلاح قلبه وتنظيفه وحشوه بالخير وملئه بالإيمان وغرس التقوى فيه !!

● جدير بالعبد أن يكثر من ذكر اللَّه وأن يسأل ربَّه سبحانه وتعالى لقلبه الشفاء والثبات على الإيمان حتى الممات!!

● حريٌّ بالعبد أن يبحث عن سبب مرض قلبه وأن يسأل عن علاجه !!

● ها هي جملة أمراض تعتري القلوب ، وها هو علاجها ، والشفاء في كل حال من عند اللَّه سبحانه وتعالى ، لا شفاء إلا شفاؤه .

فإلى أمراض القلوب ، ها هو المرض، وهذا علاجه ، هذا هو الداء، وهذا دواؤه .

دواءٌ لا يكاد يخطئ ، بل لا يخطئ أبدًا ما دام دواءً من عند اللَّه ، ما دام دواء من كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ .

فعليك بالدواء ولا تفرط فيه ولا تُقَصِّرْ في تناوله ولا تتغافل عنه !!

هذا الداء ! وهذا الدواء !

هذا المرض ! وفي هذا الشفاء !

* * *

أمر القلوب موكولٌ إلى اللَّه سبحانه وتعالى :

ابتداءً فإن أمر القلوب موكول إلى اللَّه سبحانه وتعالى؛ فهو سبحانه يملكها ويتصرف فيها كيف يشاء ، قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] ، فهو سبحانه أملك لقلوب عباده منهم، وهو سبحانه يحول بينهم وبين التسلط على قلوبهم فهو وحده المتصرف فيها يقلبها كيف يشاء .

- يقذف فيها الهداية ويُزين فيها الإيمان !!
- ينزل فيها السكينة ويورثها الاطمئنان !!
- يربط عليها ليكون أصحابها من المؤمنين !

قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧]

- فترى من الذي زين الإيمان في القلوب ، إنه اللَّه سبحانه وتعالى !!
- وقال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]

فيا سبحان اللَّه فاللَّه سبحانه هو الذي يأذن في الإيمان، ويوفق إليه من يشاء !!!

وقد علم أهل الإيمان ذلك ، علموا أن اللَّه هو الذي هداهم، هو وحده سبحانه لا أحد سواه ، ومن ثمَّ قالوا : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]

واللَّه سبحانه هو الذي يربط على القلوب.

● قال تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ١٠]

فاللَّه هو الذي ربط على قلبها وأنزل السكينة عليها .

● وقال سبحانه في شأن الفتية أصحاب الكهف : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف: ١٣، ١٤]

فيا ترى من الذي ربط على قلوبهم؟ إنه اللَّه سبحانه وتعالى !!

● هو سبحانه الذي يقذف الرحمة في القلوب!!

قال اللَّه سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ [الحديد: ٢٧]

● وقال النبي ﷺ ، وهو يبكي على ابن قد مات لابنته ، لما سأله الصحابة عن سبب بكائه : « **هذه رحمة جعلها اللَّه في قلوب عباده ، وإنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء** »(١) .

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٤) ومسلم (٦/ ٢٢٤) من حديث أسامة بن زيد رضي اللَّه عنهما.

« أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه : إن ابنًا لي قبض ، فأتنا . فأرسل يقرئ السلام ويقول : «**إن للَّه ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب**» . فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها . فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال . فرفع إلى رسول اللَّه ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع ـ قال : حسبته أنه قال : كأنها شن ـ ففاضت عيناه ، فقال سعد : يا رسول اللَّه ما هذا ؟ فقال : « **هذه رحمة اللَّه في قلوب عباده، وإنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء** » .

والله سبحانه وتعالى هو الذي ينزل السكينة على القلوب :

قال الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح : ٤]

وقال تعالى : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ..﴾ [التوبة : ٢٦]

وقال تعالى : ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ١٨]

وقال تعالى : ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا..﴾ [التوبة : ٤٠]

ومن ثمَّ كان النبي ﷺ يقول [1]:

« والله لولا اللهُ ما اهتدينـا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلـن سكينـةً علينـا وثبت الأقدام إن لاقينا »

- **وكذلك أمر الغواية والإضلال** ، والقسوة والاضطراب كل ذلك كائن بإذن الله وتدبيره وعلمه وحكمته وإرادته .
- قال الله سبحانه : ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم : ٢٧]
- وقال سبحانه في شأن أقوامٍ : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة : ٤١]

---

(١) البخاري (حديث ٤١٠٤) ومسلم (١٨٠٣) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما مرفوعًا.

● وقال سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الحجر: ١٢]

● وقال سبحانه : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة: ٧]

● وقال تعالى : ﴿ فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ . . . ﴾ [الشورى: ٢٤]

● وقال سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٩]

● وقال عليه الصلاة والسلام[١] : « **ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه** » ، وكان رسول اللَّه ﷺ يقول : « **يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك** » .

وفي « الصحيحين»[٢] من حديث أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : تُقبلون صبيانكم ؟! فما نقبلهم، النبي ﷺ : « **أوَ أملك لك أن نزع اللَّه من قلبك الرحمة** ».

وكذلك الرعب ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [الأحزاب: ٢٦]

وقال تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢]

---

(١) أخرجه ابن ماجة (١/ ٧٢) وابن خزيمة وأحمد من حديث النواس بن سمعان رضي اللَّه عنه مرفوعًا وفي رواية أحمد وغيره: « **يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك** » .

(٢) البخاري (٥٩٩٨) ومسلم (٢٣١٧) .

وقال تعالى : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ... ﴾ [آل عمران: ١٥١]

وقال النبي ﷺ : « نصرت بالرعب مسيرة شهر »(١) .

ومن ثمَّ قال موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨]

سؤال اللَّه الهداية والثبات

إذا علم العبد ذلك فجديرٌ به ، بل ولزامًا عليه أن يسأل ربه صلاح قلبه وهدايته وثباته على الإيمان ، ويتعوذ باللَّه من قلب لا يخشع وقلب لا يلين ولا يخضع للَّه رب العالمين.

وهكذا كان أهل الإيمان والراسخون في العلم يفعلون.

● قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ ۝٧ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٧، ٨]

فانظر إلى قول أهل الرسوخ في العلم : ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨]

● بل وانظر إلى دعاء رسول اللَّه ﷺ : « اللهم يا مقلب القلوب ثبت

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٣٥) ومسلم (حديث ٥٢١) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنهما مرفوعًا.

قلبي على دينك »[١]

● بل وأمعن النظر في قول النبي ﷺ : « **ومقلب القلوب** »[٢] .

وأخرج الإمام مسلم[٣] رحمه اللَّه تعالى من حديث عبد اللَّه بن عمرو ابن العاص رضي اللَّه عنهما أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول : « **إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء** » ، ثم قال رسول اللَّه ﷺ : « **اللهم مصرف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك**» .

● وكان عليه الصلاة والسلام يدعو ربَّه عز وجل فيقول في دعائه : «**...اللهم اجعل في قلبي نوراً** » .

وأخرج البخاري[٤] ومسلم من حديث عائشة رضي اللَّه عنها أن النبي ﷺ كان يقول : « .... **ونقِّ قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس ...**» .

● وأثنى اللَّه على أهل الإيمان الذين جاءوا بعد أصحاب رسول اللَّه

---

(١) ، (٢) صحيحة وقد تقدمت .

(٣) مسلم (حديث ٢٦٥٤) .

(٤) أخرجه البخاري (حديث ٦٣٦٨) ومسلم (مع النووي ٢٨/١٧) ولفظ البخاري : **«اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمغرم ، ومن فتنة القبر وعذاب القبر ، ومن فتنة النار وعذاب النار ، ومن شر فتنة الغنى ، وأعوذ بك من فتنة الفقر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، اللهم اغسل عني خطاياي بماء الثلج والبرد ، ونقِّ قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس ، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب»** .

ﷺ بقوله : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر : ١٠]

وفي « صحيح مسلم» (١) من حديث زيد بن أرقم رضي اللَّه عنه أن النب ﷺ كان يتعوَّذ من قلب لا يخشع .

● فدلت هذه الأدلة بجملتها ، وكذلك غيرها كثيرٌ من الأدلة في هذا الباب على أن أمر القلوب وسلامتها وهدوءها وسكينتها ، كل ذلك موكولٌ إلى اللَّه سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه يثبت من يشاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء سبحانه له الأمر من قبلُ ومن بعدُ.

*** ولكن هناك أسباب يلتمسها الشخص ، وطرق ومسالك يطرقها العبد ويسلكها تكون سببًا في قذف الخير أو الشر إلى قلبه :**

● فالإيمان والذكر والشكر وأفعال الخير والبر، كل ذلك سبب في سلامة القلوب .

● والشرك والكفر والاعتـداء والظلم، كل ذلك سبب في فساد القلوب.

---

(١) في مسلم مع النووي (١٧/ ٤١) من حديث زيد بن أرقم رضي اللَّه عنه قال : لا أقول لكم إلا كما كان رسول اللَّه ﷺ يقول : **« اللهم إني أعوذ بك من العجـز والكسـل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر ، اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ـ اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها ».**

* فمن انصرف عن الخير والإيمان صرف اللَّه قلبه

قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]

فأفادت الآية أنهم لما انصرفوا صرف اللَّه قلوبهم.

* ومن سلك طريق الزائغين أزاغ اللَّه قلبه

قال سبحانه : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]

* ومن كذب ونقض العهد مع اللَّه قُذف في قلبه النفاق.

● قال تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧]

ومن نقض الميثاق قسا قلبه

● قال تعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]

ومن أشرك قذف في قلبه الرُّعب

● قال تعالى : ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: ١٥١]

● وقال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]

● وقال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ١٢]

والذنوب تترك سواداً على القلب

● قال تعالى : ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]

● وتقدم حديث رسول اللَّه ﷺ : « إذا أذنب العبد ذنبًا نكتت في قلبه نكتة سوداء » .

● وقال تعالى : ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]

● وقال عليه الصلاة والسلام : « تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً فأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء » .

وكاتم الشهادة آثمٌ قلبه

● وكتمان الشهادة يفسد القلب ، قال اللَّه تعالى : ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]

وكذلك فالشخص يتسبب لنفسه في صلاح قلبه بإذن اللَّه

● قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]

● وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]

وتقدم حديث رسول اللَّه ﷺ في عرض الفتن على القلوب: « .. وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ...».

وقال تعالى : ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]

وقال سبحانه : ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]

أمراض وآفات تعتري القلوب
وعلاج هذه الأمراض
﴿ مرض الشرك ﴾

وأعظمُ الأمراض التي تعتري القلوب على الإطلاق مرض الشرك ، والعياذ باللَّه فهو سبب كل شرٍّ يتجه إلى القلب، وكل بلاءٍ يدخل فيه ، وكلُّ ختمٍ وطبعٍ يقع عليه .

قال اللَّه تعالى : ﴿**كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ**﴾ [الأعراف: ١٠١]

والمشرك دائمًا خائفٌ مذعورٌ ، خائفٌ من كل شيء ، ومضطربٌ في كل اتجاه ، ومرعوب مذعور، وإن أظهر أنه مطمئن هادئ .

قال اللَّه عز وجل : ﴿**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**﴾ [آل عمران: ١٥١]

*** المشركُ دائمًا حيرانٌ قلق:**

قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿**قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ٧١]

المشرك خائف من كل شيء ، خائف من آلهته وأصنامه يظن أنها تضره ، بل ويظن أنها تضر الآخرين ، ألا ترى قولهم لنوحٍ عليه السلام :

﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤]

المشرك خائفٌ من الجن يعوذ بهم ويستغيث !!!

خائفٌ من البشر !!

خائفٌ من كل شيء وإن أظهر الشجاعة وأبداها !!

● أما المؤمن فمطمئن القلب ثابت الفؤاد يعلم تمام العلم قوله تعالى : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]

● المؤمن مطمئن القلب هادئ البال يدرك تمامًا أنه لن يصيبه إلا ما كتب اللَّه له : ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]

وعلاج هذا الشرك هو التوحيد وإخلاص العبادة للَّه سبحانه وتعالى:

السجود له وحده ، الخضوع له وحده ، الخوف منه وحده ، الرغباء إليه وحده وكذلك العمل ، هو الذي يُدعا ، هو الذي يُرجا هو الذي يشفي، هو الذي يحيي ، هو الذي يميت ! إليه المنتهى في كل شيء ، بيده خزائن كل شيء ، قدَّر المقادير ، وكتب الآجال ، ووسع على العباد في الأرزاق ، وضيَّق على من شاء ، يعز ويذل ، يرفع ويخفض ، يقبض ويبسط .

لا يطاف إلا ببيته (الكعبة) ، لا يُذبح إلا على اسمه

لا يبتغى بالعمل إلا وجهه سبحانه وتعالى

له الحكم ، له الملك ، وهو على كل شيء قدير .

لهذا اطمأن قلب المؤمن ، اطمأن قلبه لأنه عرف من أين يأتي الخير وكيف يُدفع الشر .

اطمأن قلبه لما عرف ربه سبحانه وتعالى فحدثت له طمأنينة علي قدر تلك المعرفة ، وحدث له هدوءٌ على قدر ذلك الإيمان ، وحلت بقلبه السكينة مع اليقين .

لم يخش المشركين وآلهتهم .

• ألا ترى إلى قول نوح ﷺ : ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]

• ألا ترى قول الخليل إبراهيم ﷺ وهو يقول لقومه متحديًا : ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٨٠]

وقوله : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ [الأنعام: ٨١]

• ألا ترى إلى امرأة ضعيفة ، امرأة أعتى رجل وأظلم رجل عرفه التاريخ، إنها امرأة فرعون ، آمنت فقالت : رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ، فأنجاها اللَّه ولم يتسلط هذا الباغي على قلبها !!

• وهذا هو قول أهل الإيمان ، بل قول خير الأنام محمد ﷺ وقول أصحابه لما قال لهم الناس: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ

سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]

● غلام صغير يأخذه الجبابرة كي يقتلوه ولا حول له ولا قوة إلا باللَّه، فيقول : « **اللهم اكفنيهم بما شئت** » فيصرف اللَّه عنه السوء[(١)] !!

فيا لها من قوة حلت بالقلب ، ويالها من شجاعة حلت بالفؤاد قوة وطمأنينة ، حلت بالقلب فسكن وهدأ واطمأن إلى وعد اللَّه سبحانه وتعالى وإلى تدبير اللَّه سبحانه وتعالى .

ألا فليكثر العبد من قول : لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه ، ويتقلد هذا الدين الحنيف ، دين الإسلام خير الأديان ، فمن ابتغى دينًا غيره فهو في الآخرة من الخاسرين .

* * *

---

(١) قصته في « صحيح مسلم » (حديث ٣٠٠٥) ، وهو الذي ورد ذكره في قصة أصحاب الأخدود .

الرياء وعلاجه

ومن أمراض القلوب التي تعصف بها أيضًا مرض الرياء ، وقد جاء ذمُّه وبيان خطره في كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ .

● قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ١٤٢]

● وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ [النساء: ٣٨]

● وقال تعالى : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: ٤٧]

● وقال اللَّه سبحانه وتعالى في الحديث القدسي : « **أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه** »[١] .

● وقال عليه الصلاة والسلام : « **إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر** » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول اللَّه ؟ قال: « **الرياء ، يقول اللَّه عزَّ وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً ؟!!** »[٢] .

---

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **قال اللَّه تبارك وتعالى ....** » .

(٢) أخرجه أحمد (٥/٤٢٨) من حديث محمود بن لبيد رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال . . . فذكره ، وإسناده صحيح .

● وها هي نماذج لقوم جاهدوا وقرأوا القرآن وتعلموا العلم وتصدقوا ، ولكنهم للأسف أول من تسعر بهم النار ، وأول من يقضى عليهم يوم القيامة، فياله من ضياعٍ وياله من خسارٍ ، ها هو حديثهم وتلك قصتهم .

أخرج مسلم (١) في « صحيحه » من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : **« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ، رجل استشهد . فأتي به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت . ولكنك قاتلت لأن يقال جريء . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتىٰ ألقي في النار . ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن . فأتي به . فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم . وقرأت القرآن ليقال هو قارئ . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار . ورجل وسع اللّه عليه وأعطاه من أصناف المال كله . فأتي به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه . ثم ألقي في النار »**(٢) .

---

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٩٠٥) .

(٢) قوله ﷺ في الغازي والعالم والجواد ، وعقابهم على فعلهم ذلك لغير اللّه ، وإدخالهم النار ـ دليل على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته ، وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال ، كما قال اللّه تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ =

● وفي « الصحيحين »(١) أن رسول اللَّه ﷺ سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل اللَّه ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ : « **من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه** » .

فيا سبحان اللَّه قوم ينفقون ، وفي الظاهر أن هذا الإنفاق في سبيل اللَّه، ولكن للأسف يعذبون به ويعاقبون عليه لكونهم ما أخلصوا العمل فيه للَّه، قال اللَّه سبحانه : ﴿ **وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا** ﴾ [النساء: ٣٨]

● ويا سبحان اللَّه رجل يقاتل مع رسول اللَّه ﷺ ويتبع كل شاذة وفاذة من المشركين يقتلها ، ولم يجزئ أحدٌ من أصحاب رسول اللَّه ﷺ كما أجزأ هذا الرجل في تلك المعركة ، ومع ذلك قال النبي ﷺ : « **هو من أهل النار**» حتى كاد الصحابة رضوان اللَّه عليهم أن يرتابوا من أمرهم وقد قدمنا حديثه في ذلك فارجع البصر إليه ، ثم ارجع البصر كرتين ، واتعظ واعتبر.

= **الدِّينَ** ﴾ [البينة: ٥] ، وفيه: أن العمومات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد اللَّه تعالى بذلك مخلصًا . وكذلك الثناء على العلماء وعلى المنفقين في وجوه الخيرات ، كله محمول على من فعل ذلك للَّه تعالى ، مخلصًا .

(١) أخرجه البخاري (٢٨١٠) ومسلم (حديث ١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي اللَّه عنه مرفوعًا .

وعلاج الرياء :

دعاء اللَّه عز وجل بصرفه[(١)] ، والإقبال على إخلاص العمل للَّه عز وجل ، والإقبال على عمل الخير سرًّا ، وقد جآءت جملة من النصوص في ذلك :

- قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿**إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٧١]

- وقال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ**﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠]

- وحث النبي ﷺ على الصلاة ـ صلاة النفل ـ في البيوت للابتعاد عن الرياء والسمعة .

قال عليه الصلاة والسلام: « ... **فصلوا أيها الناس في بيوتكم فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**»[(٢)] .

والصلاة في الثلث الأخير من الليل والناس نيام أكثر ثوابًا، وأعظم أجرًا، وأقرب إلى اللَّه عز وجل، وأبعد عن الرياء ، وهو وقتٌ ينزل فيه ربنا

---

(١) وقد ورد في ذلك حديث في إسناده فقال ، ألا وهو : « **اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم** » لكن عمومات الأدلة التي حوت الأدعية بسلامة القلوب وصلاحها يستشهد بها في هذا الباب .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه مرفوعًا.

إلى السماء الدنيا كما ثبت في « الصحيحين »[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعوني فأستجيبَ له ، من يسألني فأعطيَه ، من يستغفرني فأغفرَ له** » .

وأخرج أحمد[(٢)] في « مسنده » من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **عجب ربنا عز وجل من رجلين : رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحيه إلى صلاته ؛ فيقول ربنا : أيا ملائكتي انظروا إلى عبدي ثار من فراشه ووطائه ومن بين حيه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي ، ورجل غزا في سبيل الله عز وجل فانهزموا فعلم ما عليه من الفرار وما له في الرجوع فرجع حتى أهريق دمه (رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي)[(*)] فيقول الله عز وجل لملائكته : انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي ورهبة مما عندي حتى أهريق دمه** » .

● وحث النبي ﷺ على الصلاة في جوف الليل ، والعبد في هذا الوقت يكون بعيدًا عن الناس ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : « **أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة الصلاة في جوف الليل ..** »[(٣)] .

● وقال عليه الصلاة والسلام[(٤)] : « **سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل**

(١) أخرجه البخاري مع « الفتح » (٣/ ٢٩) ومسلم (٧٥٨) .

(٢) أحمد في « المسند » (١/ ٤١٦) وإسناده حسن وله شواهد .

(*) كذا في « المسند » المطبوع ، والظاهر من السياق أنها زائدة والله أعلم.

(٣) أخرجه مسلم (ص٨٢١) .

(٤) أخرجه (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ، ووقع في رواية مسلم : «**حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله**»، وهذا وهم وخطأ من الراوي ، والصواب ما ذكرناه : « **حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه** » .

إلا ظله .. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر اللَّه خاليًا ففاضت عيناه » .

● وها هو رسولنا ﷺ ينام مع أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها ويظن أنها قد نامت فيتسلل من الفراش ويذهب إلى القبور في الليل يُسلِّم على أهلها ويدعو لهم .

وها هو الحديث بذلك كما أخرجه[١] مسلم رحمه اللَّه من حديث أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها ، قالت : ألا أحدثكم عني وعن رسول اللَّه ﷺ ؟! قلنا : بلى . قال : قالت : لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي ، انقلب فوضع رداءه ، وخلع نعليه ، فوضعهما عند رجليه ، وبسط طرف إزاره على فراشه ، فاضطجع . فلم يلبث إلا ريثما[٢] ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويدًا[٣] وانتعل رويدًا ، وفتح الباب فخرج . ثم أجافه[٤] رويدًا . فجعلت درعي في رأسي[٥] ، واختمرت[٦] . وتقنعت إزاري[٧] . ثم انطلقت على إثره . حتى جاء البقيع فقام . فأطال القيام . ثم

---

(١) أخرجه مسلم (ص ٦٧٠) .

(٢) « إلا ريثما » معناه إلا قدر ما .

(٣) « أخذ رداءه رويدًا » أي : قليلاً لطيفًا لئلا ينبهها .

(٤) « ثم أجافه » أي أغلقه . وإنما فعل ذلك ﷺ في خفية لئلا يوقظها ويخرج عنها ، فربما لحقتها وحشة في انفرادها في ظلمة الليل .

(٥) « فجعلت درعى في رأسي » درع المرأة قميصها .

(٦) « واختمرت » أي : ألقيت على رأسي الخمار ، وهو ما تستر به المرأة رأسها .

(٧) « وتقنعت إزاري » هكذا هو في الأصول : إزاري ، بغير باء في أوله . وكأنه بمعنى لبست إزاري ، فلهذا عدي بنفسه .

رفع يديه ثلاث مرات . ثم انحرف فانحرفت . فأسرع فأسرعت . فهرول فهرولت . فأحضر فأحضرت[١] . فسبقته فدخلت . فليس إلا أن اضطجعت فدخل . فقال : « **ما لكِ ؟ يا عائش ! حشيا رابية**[٢]**!** » قالت : قلت : لا شيء . قال : « **لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير** » قالت : قلت : يا رسول اللَّه ! بأبي أنت وأمي ! فأخبرته . قال : « **فأنت السواد**[٣] **الذي رأيت أمامي؟** » قلت : نعم . فلهدني[٤] في صدري لهدة أوجعتني . ثم قال : «**أظننت أن يحيف اللَّه عليك ورسوله ؟** » قالت : مهما يكتم الناس يعلمه اللَّه . نعم . قال : «**فإن جبريل أتاني حين رأيت . فناداني . فأخفاه منك . فأجبته . فأخفيته منك . ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك . وظننت أن قد رقدت . فكرهت أن أوقظك . وخشيت أن تستوحشي . فقال : إنَّ ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم** » قالت : قلت : كيف أقول لهم ؟ يا رسول اللَّه ! قال : «**قولي : السلام على أهل الديـار من المؤمنين والمسلمين ويرحم اللَّه المستقدمين منا والمستأخرين وإنا ، إن شـاء اللَّه ، بكم للاحقون**».

---

(١) « فأحضر فأحضرت » الإحضار العدو . أي : فعدا فعدوت ، فهو فوق الهرولة .

(٢) « ما لك يا عائش حشيا رابية » يجوز في عائش فتح الشين وضمها . وهما وجهان جاريان في كل المرخّمات . وحشيا معناه : قد وقع عليك الحشا ، وهو الربو والتهيج الذي يعرض للمسرع في مشيه والمحتدّ في كلامه ، من ارتفاع النفس وتواتره . يقال : امرأة حشياء وحشية . ورجل حشيان وحشش . قيل : أصله من أصاب الربو حشاه . رابيه : أي: مرتفعة البطن .

(٣) « فأنت السواد » أي : الشخص .

(٤) « فلهدني » قال أهل اللغة : لهده ولهّده ، بتخفيف الهاء ، وتشديدها ، أي: دفعه (من التعليق على مسلم).

● وها هو الصحابي الجليل عمران بن حصين رضي اللَّه عنه تُسلِّم عليه الملائكة، ويكتم ذلك عن أصحابه ولا يخبرهم، ولما حضرته الوفاة أخبر بذلك لعل أحدًا ينتفع بذلك، أو يدعو له دعوة طيبة يستجيب لها اللَّه عز وجل.

● ففي « صحيح مسلم »(١) من طريق مطرف قال : قال لي عمران بن حصين : أحدثك حديثًا عسى الله أن ينفعك به : إن رسول اللَّه ﷺ جمع بين حجة وعمرة(٢) . ثم لم ينه عنه حتى مات . ولم ينزل فيه قرآن يحرمه . وقد كان يُسَلَّم علي حتى اكتويت . فتُركت . ثم تَركت الكي فعاد(٣) .

وفي رواية أخرى عند مسلم أيضًا عن مطرف ، قال : بعث إلي عمران بن حصين في مرضه الذي توفي فيه . فقال : إني كنت محدثك بأحاديث . لعل اللَّه أن ينفعك بها بعدي . فإن عشت فاكتم عني(٤) . وإن مت فحدث بها إن شئت : إنه قد سُلِّمَ علي . واعلم أن نبي اللَّه ﷺ قد جمع بين حج وعمرة . ثم لم ينزل فيها كتاب اللَّه ، ولم ينه عنها نبي اللَّه ﷺ . قال رجل فيها برأيه ما شاء .

فحريٌّ بالعبد أن يخلص عمله للَّه قال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البينة: ٥] ، ولا

---

(١) مسلم (ص ٨٩٩).

(٢) « جمع بين حجة وعمرة » أي : أمر بالجمع بينهما .

(٣) « وقد كان يسلم على حتى اكتويت فتركت . ثم تركت الكي فعاد » معنى الحديث: أن عمران بن الحصين رضي اللَّه عنه كانت به بواسير . فكان يصبر على ألمها . وكانت الملائكة تسلّم عليه . فاكتوى فانقطع سلامهم عليه . ثم ترك الكيّ فعاد سلامهم عليه .

(٤) « فإن عشت فاكتم عنى » أراد به الإخبار بالسلام عليه . لأنه كره أن يشاع عنه ذلك في حياته لما فيه من التعرض للفتنة .

يجعل كل أعماله ظاهرة أمام أعين الناس ، ولا يكثر من الحديث عن أعمال البر التي يقوم بها ، وليكثر من صدقة السر ، ومن الصلاة في البيت ، ومن الدعاء في الليل ، وإذا قُدر وتحدث العبد بنعم اللَّه عليه فليتحدث على سبيل الشكر لا على سبيل الفخر والجحود والتعالى على خلق اللَّه، واللَّه الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

* * *

مرض الكِبر والعُجب وعلاجهما

ومن الأمراض التي تعتري القلوب وتدمرها وتهلك أصحابها مرض الكبر والعُجب ، وعلاجهما التواضع قال النبي ﷺ[(١)] : «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْرٍ** » قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنةً ، قال : « **إن اللَّه جميل يحب الجمال ، الكبر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس** »[(٢)] . فهذا الكبر المستقر في القلب يحمل أصحابه على إنكار الحق وجحود النعم وإزدراء المسلمين واحتقارهم ؛ بل قد يحملهم هذا الكبر على الجدل الذي يؤدي إلى الكفر والعياذ باللَّه .

قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿**الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**﴾ [غافر: ٣٥]

وقال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [غافر: ٥٦]

ومن ثمَّ جاءت النصوص في ذم الكبر وأهله :

- قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿**إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**﴾ [النحل: ٢٣]

---

(١) أخرجه مسلم (حديث ٩١) من حديث ابن مسعود رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ .

(٢) بطر الحق، أي : دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا . وغمط الناس : معناه : احتقارهم ، (عن حاشية مسلم).

● وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]

● وقال تعالى : ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧]

● وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]

إلى غير ذلك من النصوص الواردة في هذا الباب ، وليس البحث هنا متعلق بالكبر بالدرجة الأولى ، وإلا لاستفضنا في ذلك . إنما المراد الإشارة إلى أن الكبر والعجب من الآفات التي تصيب القلب ، والإشارة إلى كيفية علاجها ومن أنفع الأدوية لعلاج هذا المرض ـ بعد التعوّذ باللَّه منه ـ التواضعُ وخفضُ الجناح للعباد ، فإن التواضع وخفض الجناح للناس ، ومجالسة الضعفاء والمساكين والفقراء من أهل الصلاح ، والأكل معهم ، والحديث معهم ، والتعرف على أحوالهم ، وزيارتهم ، كل ذلك يترك أثرًا طيبًا في القلب ، ويورث ـ بإذن اللَّه ـ رقةً فيه ، ومن ثم قال اللَّه سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ[1] : ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن

---

(١) أخرج مسلم في « صحيحه » (١٥/ ١٨٧) من حديث سعد قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفرٍ ، فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجلٌ من هذيل وبلال ورجلان لست أُسميهما ، فوقع في نفس رسول اللَّه ﷺ ما شاء اللَّه أن يقع ، فحدث نفسه ؛ فأنزل اللَّه عز وجل : ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]

بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٢ - ٥٤]

وقال تعالى : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]

● ونوحٌ ﷺ لما قال له قومه : ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١١ - ١١٤]

● ولما عبس النبي ﷺ[(١)] في وجه عبد اللَّه بن أم مكتوم عاتبه ربه فقال سبحانه : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ...﴾

[عبس: ١ - ١٢]

● وقد عاتب النبيُّ ﷺ خير أصحابه أبا بكر الصديق رضي اللَّه عنه في شأن الفقراء والضعفاء ؛ ففي « صحيح مسلم » من حديث عائذ بن عمرو أن

---

(١) أخرج الترمذي (٢٠٩/٤) بإسناد حسنه بعض العلماء لشواهده من حديث أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها أنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [عبس: ١] في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسولَ اللَّه ﷺ فجعل يقول : يا رسول اللَّه أرشدني ، وعند رسول اللَّه ﷺ رجل من عظماء قريش ، فجعل رسول اللَّه ﷺ يُعرض عنه ، ويقبل على الآخر ، ويقول : « ترى بما أقول بأسًا » ؟! ففي هذا نزل .

أبا سفيان أتى[١] على سلمانَ وصهيبٍ وبـلالٍ في نفـر ، فقـالوا : واللَّه ما أخذت سيوف اللَّه مـن عنـق عـدو اللَّـه مأخـذها ، قـال : فقـال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريـش وسيدهـم ؟! فأتـى النبـيَّ ﷺ فأخبره فقال : « **يا أبا بكر ! لعلك أغضبتهـم ، لئن كنـت أغضبتهـم لقد أغضبت ربَّك** » .

فأتاهم أبو بكر فقال : يا إخوتاه أغضبتكم ؟ قالوا : لا[٢] ، يغفرُ اللَّه لك يا أُخيّ[٣] [٤] .

● فهذا أبو بكر الصديق رضي اللَّه عنه أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ - كما عليه جمهور أهل السنة والجماعة - لما قال مقالةً لهؤلاء الفقراء الغرباء الصالحين المؤمنين ؛ عاتبه النبي ﷺ هذا العتاب!!

ومناقب أبي بكر لا تخفى على أحدٍ، وفضائله لا تكاد تحصى، وسبقه إلى الإسلام معلوم، وكذلك غزواته معَ رسول اللَّه ﷺ، وهجرته معه، وزواج الرسول ﷺ بابنته ، ونزول عدة آيات في شأنه وأهل بيته تكريمًا له، كل ذلك معلوم ولا يخفى ولا يُنكر ولا يجحد ، ومع ذلك يقول النبي ﷺ له : «**يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك**» ، فينطلق

---

(١) قال النووي : هذا الإتيان لأبي سفيان كان وهو كافر ، في الهدنة بعد صُلح الحديبية.

(٢) المعنى لا ، ويغفر اللَّه لك يا أُخي.

(٣) أُخي تصغير أخي ، وهو تصغير تحبيب وترقيق وملاطفة ، وفي بعض النسخ: بفتحها، قاله النووي .

(٤) الحديث في « صحيح مسلم » (حديث ٢٥٠٤) .

أبو بكر رضي اللَّه عنه مستدركًا ما وقع فيه فيقول : يا إخوتاه أغضبتكم ؟ قالوا : لا ، يغفر اللَّه لك يا أُخيّ !!!

فلينظر كل عبدٍ إلى حاله مع الفقراء والمساكين .

● ويرى سعدُ بن أبي وقاص رضي اللَّه عنه أن لنفسه فضلاً على بعض أقاربه ، وسعد أول من رمى بسهم في سبيل اللَّه[(١)] ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، فيعاتبه رسول اللَّه ﷺ ، ويقول له : يا سعد « **وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم** »[(٢)] ؟!

● وترى من هو الذي كان حِبّ رسول اللَّه ﷺ من أصحابه ، كان حِبُّ رسول اللَّه ﷺ أسامة بن زيد رضي اللَّه عنه وهو مولى من الموالي ، وأبوه مولى رسول اللَّه ﷺ ، وكان أسامة من السُّمرة « أي سواد اللون » بمكان ، حتى صحح بعض العلماء حديث : « **لو كان أسامة جارية لحلوته وكسوته حتى أُنَفِّقه** »[(٣)] ؟! ومع ذلك فهو حب لرسول اللَّه ﷺ يستشيره النبي ﷺ ، ويستشفع به الناس إلى رسول اللَّه ﷺ !!

---

(١) أخرج البخاري (حديث ٣٧٢٨) ومسلم (٢٩٦٦) من حديث سعد رضي اللَّه عنه قال: إني لأول العرب رمى بسهمٍ في سبيل اللَّه .

(٢) أخرج البخاري (حديث ٢٨٩٦) من طريق مصعب بن سعد قال : رأى سعد رضي اللَّه عنه أن له فضلاً على من دونه ، فقال النبي ﷺ : «**هل تنصرون إلا بضعفائكم؟!!**».

(٣) أخرج ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢٣٥٦) من طريق عائشة رضي اللَّه عنها قالت : عثر أسامة بعتبة الباب فشج في وجهه، فقال لي رسول اللَّه ﷺ : « **أميطي عنه الأذى**» فقذرته فجعل يمص الدم ويمَجُّه عن وجهه ويقول : «**لو كان أسامة جارية لكسوته وحليته حتى أُنفقه**».

وأخرجه أحمد (٦/ ١٣٩ ، ٢٢٢) وأبو يعلى (٤٥٩٧) وغيرهم ، وإسناده صحيح لغيره.

فهكذا ينبغي أن يكون المسلم الذي يريد لقلبه السلامة ينبغي أن يكثر من مجالسة الفقراء والمساكين ـ خاصة من أهل الصلاح ـ ويتفقد أحوالهم ويعود مرضاهم حتى يذكر نعم اللَّه عليه ؛ فيحيا قلبه بحمد اللَّه إذا رأى أهل البلاء ، ويحيا قلبه بالتعوذ باللَّه من البلاء ، ويحيا قلبه بدعوة صالحة يدعو له به أهل الفقر والمسكنة والحاجة ، ويحيا قلبه بشكر اللَّهِ عز وجل لصنيعه .

أخرج مسلم رحمه اللَّه من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه عز وجل يقول ، يوم القيامة : يا ابن آدم ! مرضت فلم تعدني . قال : يارب ! كيف أعودك ؟ وأنت رب العالمين . قال : أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ يا ابن آدم ! استطعمتك فلم تطعمني . قال : يا رب ! وكيف أطعمك؟ وأنت رب العالمين . قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟ يا ابن آدم ! استسقيتك فلم تسقني . قال : يا رب ! كيف أسقيك ؟ وأنت رب العالمين . قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي** ».

* **ومن الخطأ والخلل ومسببات الأذى للقلب أن يُقصر الشخص جلوسه ومحادثته على أهل المناصب والجاه والثراء** ، فإن هذا يورثه التطلع إلى ما هم فيه ، والتطلع إلى مَن هم أعلى منه ، والنظر إلى من هم أغنى وأثرى منه، ومن ثمَّ لا يستقر قلبه ولا يهدأ له بال ، ويكون دائم التطلع والنظر إلى من هم فوقه فلا يشبع ولا يكاد يشبع ، ومن ثمَّ قال رسولنا ﷺ: « **إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخَلقِ فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن**

فُضِّل عليه »[١] .

وفي رواية[٢] : « **انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة اللَّه** » ، وفي رواية : « **عليكم** » .

فإذا حرص الشخص على مجالسة أهل المناصب والأموال فقط أورثه ذلك دوام التطلع ، وازدراء النعم عليه ، ومن ثَمَّ لا يشكر ولا يكاد يشكر[٣] ، لكن إذا جالس من هم دونه رضي بما آتاه اللَّه وقنع به ومن ثمَّ هدأ قلبه واستراح ضميره وفؤاده ، وليس معنى ذلك دنو الهمة ، بل يبذل العبد

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٠) ومسلم (٢٩٦٣) .

(٢) هذه الرواية عند مسلم .

(٣) قال الترمذي (٥/ ٤٧٧ مع تحفة الأحوذي) : ويروى عن عون بن عبد اللَّه بن عتبة قال: صحبت الأغنياء فلم أر أحدًا أكثر همًّا مني ، أرى دابة خيراً من دابتي وثوبًا خيراً من ثوبي ، وصحبت الفقراء فاسترحت .

قلت : وصدق عونٌ فيما ذكر ، فالشخص يرتدي ثوبًا مثلاً بخمسة عشر ريالاً ، ثوبًا جديدًا ونظيفًا ولكنه يجالس أقوامًا يرتدي أحدهم ثوبًا بمائة ريالٍ ، فيزدري ثوبه إلى ثيابهم ويحتقر ثوبه أمام أثوابهم ، فينسى الشكر وينسى الحمد .

أما إذا جالس هذا الرجل أقوامًا فقراء ثيابهم بعشرة ريالات بل ثيابهم مرقعة ، ونظر إلى ثوبه استراح قلبه وشكر نعمة اللَّه عليه .

وكذلك في شأن الدابة فإذا اشترى شخص سيارة فيات قيمتها عشرة آلاف جنيه وسار في ركاب الأغنياء وجد الأغنياء يركبون المرسيدس ذات النصف مليون جنيه فازدرى نفسه وازدرى سيارته أمامهم وأمام سيارتهم ، ونسي الحمد .

ولكنه إذا جالس قومًا يمشون على أقدامهم، أو يركبون الدراجات، علم وشعر وأحس بفضل اللَّه عليه؛ فحمله ذلك على الشكر .

وهكذا دائمًا فصدق رسول اللَّه ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى : « **انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة اللَّه** » !!!

ما في وسعه لنيل الحلال الطيب ، ويكون راضيًا بقضاء اللَّه وقسمته واختياره، ومن ثمَّ صح عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أنه قال : شر الطعام طعام الوليمة يُدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء [١] .

فينبغي إذا صنع الرجل وليمة أن يدعو إليها أيضًا الفقراء والمحاويج مع الأغنياء ، فربَّ فقير صالح تصدر منه دعوة طيبة يستجيب اللَّه لها ويكرم بها العبد .

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم موقوفًا على أبي هريرة رضي اللَّه عنه ، وقد جاء هذا الخبر مرفوعًا إلى رسول اللَّه ﷺ كما عند مسلم .

فرواه البخاري (٥١٧٧) ومسلم (١٤٣٢) وغيرهما من طريق الزهري عن الأعرج عن أبي هريرة.

وجماعة أصحاب الزهري رووه عنه عن الأعرج عن أبي هريرة موقوفًا .

أما سفيان فاختلف عليه .

فرواه مرة عن الزهري عن الأعرج عن أبي هريرة كرواية الجماعة (على الوقف).

ورواه مرة عن الزهري عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعًا .

ورواه مرة عن زياد بن سعد عن ثابت الأعرج عن أبي هريرة مرفوعًا (عند مسلم).

ورواه مرة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة موقوفًا .

فهذه الأوجه من الاختلاف على سفيان توهن رواية سفيان .

فالراجح من رواية الزهري أنها عن الأعرج عن أبي هريرة موقوفًا .

وقد توبع الأعرج على هذه الرواية الموقوفة ، تابعه سعيد بن المسيب عن أبي هريرة على الوقف ـ كما عند مسلم وغيره .

فالراجح أن الحديث لا يثبت عن رسول اللَّه ﷺ ، اللهم إلا قوله : « ومن لم يجب الدعوة فقد عصى أبا القاسم ﷺ » فلها حكم الرفع .

هذا ، وللحديث طرق أخرى تالفة الأسانيد لا تقوم بها حجة ولا يستأنس بها ، واللَّه أعلم.

● وإذا لم يستطع صاحب الدعوة إحضار الفقراء إلى بيته فليرسل لهم من الطعام إلى بيوتهم وليكرمهم كما أكرمه اللَّه ، فإن في هذا صلاح للقلب بإذن اللَّه .

وكما أسلفنا فإن الجليس يؤثر في جليسه وفي قلب جليسه كما جاء عن رسول اللَّه ﷺ : « **مثلُ الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يُحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخُ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة** »[(١)] .

وليس الجليس من الناس فحسب هو الذي يؤثر؛ بل مجالسة حتى الحيوان تؤثر قال النبي ﷺ[(٢)] : « **رأس الكفر نحو المشرق ، والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل والفدَّادين أهل الوبر ، والسكينة في أهل الغنم** ».

فالناقة لما كانت تمشي رافعة رأسها إلى أعلى أورث ذلك ـ واللَّه أعلم ـ من يجالسونها كبرًا وعجبًا.

والشاة لكونها ساكنة أورثت أهلها سكونًا وتواضعًا بإذن اللَّه ، ومن ثمَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣٤) ومسلم (٦٢٨) من حديث أبي موسى رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ .

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٠١) ومسلم (٥٢) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه مرفوعًا وفي رواية في البخاري (٣٤٩٨) ومسلم (٥١) عن أبي مسعود يبلغ به النبي ﷺ قال : « **من هاهنا جاءت الفتن نحو المشرق والجفاء وغلظ القلوب في الفدادين أهل الوبر عند أصول أذناب الإبل والبقر في ربيعة ومُضر** » .

قلت : والفدادين هم أصحاب الإبل الذين تعلو أصواتهم في إبلهم .

قال النبي ﷺ : « **ما بعث اللَّه نبيًّا إلا رعى الغنم**» ، فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : « **نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة** »[(١)] .

وقد صح[(٢)] عن أمير المؤمنين عمر أنه ركب برذونًا فجعل يتبختر به فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبخترًا فنزل عنه، وقال: ما حملتموني إلا على شيطان ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي ، فلركوب البرذون وتبختر البرذون براكبه أثر في نفس راكبِهِ فتركه أمير المؤمنين عمر ، وليس ترك أمير المؤمنين عمر لركوبه من باب التحريم ، فحاشا أمير المؤمنين من أن يحرم شيئًا أحله اللَّه ، فاللَّه يقول : ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً**﴾ [النحل : ٨]

ولكن لما كان لهذا التبختر من البرذون أثرٌ في قلب أمير المؤمنين عمر ترك أمير المؤمنين عمر هذا البرذون ونزل عنه !!

وإلحاقًا ، ففي زماننا في مدينة من المدن كمدينة المنصورة مثلاً قد يمشي الشخص من مكانٍ إلى مكانٍ لقضاء حاجةٍ له على رجليه ، فيكون للقلب حالة معينة ، وقدْ يركب نفس الشخص سيارة أجرة تحمل عشرة ركاب من نفس المكان إلى المكان فيجد قلبه على حالة أخرى ، وهو ينظر إلى الذين يسيرون على الأقدام .

ثم إنه قد يركب تاكسي مخصوص لا يركب فيه إلا هو فيرى قلبه على حالة أخرى ليست بتلك الحالة التي كان عليها وهو يمشي على رجليه أو

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٦٢) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه مرفوعًا .

(٢) أخرجه الطبري (١/ ٧٦) وابن شبة في « تاريخ المدينة » (٣/ ٨٢٢ ، ٨٢٣) وانظر ابن كثير في « التفسير » (١/ ١٧) .

يركب تلك السيارة المشتركة التي تجمع بينه وبين آخرين.

ثم إنه قد يركب سيارة ملاكي فيتحول القلب إلى حالة أخرى!!

ثم إنه قد يركب ملاكي مرسيدس فكيف ترى قلبه في هذه الحالة وهو ينظر إلى الآخرين، وجرِّب بنفسك إن شئت أن تُجرِّب.

وليس الباب باب الخوض في التحليل والتحريم، فإن اللَّه يقول: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...﴾** [الأعراف: ٣٢]

إنما الباب باب معالجة القلوب، واللَّه المستعان.

● وينبغي للشخص أن يترك ما يجلب له العُجب والكِبر وما يزكي ذلك في قلبه وينميه، **فينبغي ألا يُكثر من تزكية نفسه أمام الناس والثناء عليها**، فإن اللَّه سبحان وتعالى قال: **﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾** [النجم: ٣٢]

وقال سبحانه: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾** [النساء: ٤٩]

وكان النبي ﷺ يقول: « **لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد اللَّه ورسوله**»(١) .

وكان القادم إذا دخل المسجد لم يكد يعرف رسول اللَّه ﷺ من بين أصحابه حتى إن الأعرابي يدخل فيسأل أيكم محمد ﷺ .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر رضي اللَّه عنه مرفوعًا.

فالألفاظ التي يتلفظ بها الشخص تؤثر على قلبه ، ولنذكر لذلك مثالاً.

مجموعة من الناس جلوس فبدأ التعارف فيقول أحدهم : سمي فلان أو أخوكم فلان بن فلان ، ويستمر الناس على هذا المنوال أخوكم فلان وأخوكم فلان فيأتي أحدهم فيقول عن نفسه الدكتور فلان (على سبيل التباهي والفخر).

ترى كيف تفعل هذه الكلمة بنفس قائلها وبقلب قائلها (إذا كان يقصد بها التعالى على الجالسين) إنها تقذف في القلب غرورًا وكبرًا وعجبًا ، يدخل من خلالها الشيطان إلى القلب ويوسوس في الصدر بناءً عليها ويُشعر قائلها بأنه خيرٌ وأفضل ممن يجالسهم فيئول به ذلك إلى ازدرائهم واحتقارهم[١] ، وربما آل به الأمر إلى بطر الحق وغمط الناس.

ونحو ذلك إذا جلس قوم وبدأ التعارف فقال أحدهم معرفًا بنفسه: الشويش فلان ، وقال الآخر : العميد فلان ، وقال ثالث: اللواء فلان ، فنفس كل قائلٍ منهم تعتريها أحوال لا تعتري نفس الآخر[٢] ، والمعصوم من عصمه اللَّه تبارك وتعالى .

ولك يا عبد اللَّه في نبيك ﷺ أسوة حسنة **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾**

[الأحزاب: ٢١]

---

(١) ثم إن الناس لا يحبون من تعالى عليهم وتكبر .

(٢) ونادرًا ما تحدث مثل هذه المجالس، فلا تكاد تجد مجلسًا يجلس فيه لواء مع شويش ويتحدثان ويأكلان معًا ويبتسم أحدهما للآخر ، لا تكاد تجد مثل هذه المجالسة إلى عند رجل بلغ به الصلاح مداه .

فالزم التواضع يا عبد اللَّه ، والزميه كذلك يا أمة اللَّه .

إذا صنعت طعامًا فأطعم منه الفقراء والمحاويج والمساكين.

أرسل إليهم طعامًا إلى بيوتهم وأتِ بهم أيضًا إذا صنعت الولائم.

ابحث عن مريض فعُده ، وعن جائعٍ فأطعمه ، وعن محتاج فسد حاجته ، وعن مكسور الخاطر فاجبر كسره !

هذه بعض أخلاق نبيك ﷺ هذا طرف يسير منها ، وحقًّا إنه كما قال عنه ربه سبحانه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]

فتأسَّ بها لعلك ترشك ، وعساك أن تُوفق .

● تأتي امرأة إلى رسول اللَّه ﷺ فتقول : يا رسول اللَّه إن لي إليك حاجة! فيقول لها : « **يا أم فلان انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك** » !!! فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها[(١)] .

فيا سبحان اللَّه إمام المسلمين ، وسيد ولد آدم أجمعين توقفه امرأةٌ في الطريق ، امرأةٌ في عقلها شيء وهو يُصغي إليها ويستمع لحاجتها ﷺ .

● هاهو رسول اللَّه ﷺ يرمي الجمرة في الحج ، يرميها كما يرميها الناس ، يزدحم عليه الناس كما يزدحمون على غيره ، ولكن لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك[(٢)] .

---

(١) أخرجها مسلم (٢٣٢٦) من حديث أنس رضي اللَّه عنه أن امرأة كان في عقلها شيء، فقالت : يا رسول اللَّه إن لي إليك حاجة ، فقال : « يا أم فلان. . . » فذكر الحديث.

(٢) أخرجه الترمذي (٣/ ٦٤٧ مع التحفة) وأحمد (٣/ ٤١٢ ـ ٤١٣) وعبد بن حميد في «المنتخب » (بتحقيقي حديث ٣٥٧) بإسناد حسن من حديث قدامة بن عبد اللَّه المعافري=

هكذا يقول صاحبه ، يقول : رأيت النبي ﷺ يرمى الجمرة لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك !!!

فصلوات ربي وسلامه عليه .

● يأكل مع الضعيف ـ يجلس مع المريض ـ يُمازح الصبي ـ يعود خادمه اليهودي عند مرضه، يسابق نساءه ـ يُسلم على الصبيان؛ بل ويرحم الحيوان.

● يدعوه صاحب الدعوة فيأتيه .

● يدعو غيره أيضًا إلى بيته .

● يُمازح أصحابه ويمازحونه.

أخرج الحاكم في « مستدركه »[1] بإسناد حسن من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه قال : كان أسيد بن حضير رجلاً صالحًا ضاحكًا مليحًا فبينما هو عند رسول اللَّه ﷺ يحدث القوم ويضحكهم ، فطعن رسول اللَّه في خاصرته فقال : أوجعتني قال : « **اقتص** » قال : يا رسول اللَّه إن عليك قميصًا ولم يكن عليَّ قميص قال : فرفع رسول اللَّه ﷺ قميصه فاحتضنه ثم جعل يُقبل كشحه فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول اللَّه أردت هذا ، ومع ذلك كله سمت النبوة عليه ، وتاج الوقار فوق رأسه ، يحمل بين جنبيه قلبًا خاشعًا قلبًا أواهًا منيبًا ، قلبًا سليمًا مخبتًا للَّه رب العالمين.

* * *

= قال: رأيت رسول اللَّه ﷺ يرمي الجمرة يوم النحر على ناقةٍ صهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك .

(١) « المستدرك » (٣/ ٢٨٨) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي.

من مفسـدات القلـوب
سماع الأغاني الماجنة والموسيقى الصاخبة
وكثرة الكلام بغير ذكر اللَّه

وسماع الأغانـي الماجنـة والموسيقى الصاخبة ، وكثـرة الكـلام بغير ذكـر اللَّه عز وجـل ، وكذلك الجلـوس إلى مـن يغتابـون المسلمين والمسلمـات ويقعون في أعراضهـم ، والخوض في هذه الأعراض كل هذه ذنوب تترك أثرًا سيئًا وسوادًا على القلب ، بل وتورثه القسوة .

وعلاج ذلك البعد عن هذه الأشياء والإكثـار من ذكر اللَّه عز وجل والإكثـار من الاستماع للقرآن ، والمواعظ

قال اللَّه سبحانه : ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ [الزمر : ٢٣]

وقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [الأعراف : ٢٠٤]

وسيأتي لذلك مزيدٌ إن شاء اللَّه .

الاستماع للمواعظ له أثر عظيم في رقة القلب

قال اللَّه سبحانه : ﴿ .. **وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا** ﴾ [النساء : ٦٣]

وأخرج أبو داود(١) من حديث العرباض بن سارية رضي اللَّه عنه قال : صلى بنا رسول اللَّه ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول اللَّه كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ قال : « **أوصيكم بتقوى اللَّه والسمع والطاعة وإن عبدًا حبشيًا ؛ فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة** » .

وفي « صحيح البخاري »(٢) من حديث أُبي بن كعب رضي اللَّه عنه قال قال رسول اللَّه ﷺ : « **موسى رسول اللَّه عليه السلام ، قال ذكَّر الناس يومًا حتى إذا فاضت العيون ورقَّت القلوب ولَّى**(٣) .. » الحديث .

وفي « صحيح مسلم »(٤) من حديث حنظلة الأُسيدي قال (وكان من كتاب رسول اللَّه ﷺ) قال : لقيني أبو بكر فقال : كيف أنت ؟ يا حنظلة ! قال قلت : نافق حنظلة . قال : سبحان اللَّه ! ما تقول ؟ قال قلت : نكون عند رسول اللَّه ﷺ . يذكرنا بالنار والجنة . حتى كأنا رأي عين(٥) ؛ فإذا

---

(١) أخرجه أبو داود (حديث ٤٦٠٧) بإسناد صحيح لشواهده .

(٢) البخاري (حديث ٤٧٢٦) وأصل الحديث أيضا عند مسلم (٢٣٨٠) لكن اللفظ المشار إليه لفظ البخاري وفي بعض الروايات في الصحيح : « **بينما موسى عليه السلام في قومه يذكرهم بأيام اللَّه ، وأيام اللَّه نعماؤه وبلاؤه** .. » الحديث .

(٣) قال الحافظ ابن حجر « فتح الباري » (٨/٤١٣) : فيه أن الواعظ إذا أثر وعظه في السامعين فخشعوا وبكوا ينبغي أن يُخفف لئلا يملوا .

(٤) أخرجه مسلم (حديث ٢٧٥٠) .

(٥) أي : كأننا نراها بأعيننا .

خرجنا من عند رسول اللّه ﷺ ، عافسنا[١] الأزواج والأولاد والضيعات[٢] . فنسينا كثيرا . قال أبو بكر : فواللّه ! إنا لنلقى مثل هذا . فانطلقت أنا وأبو بكر ، حتى دخلنا على رسول اللّه ﷺ . قلت : نافق حنظلة . يا رسول اللّه ! فقال رسول اللّه ﷺ : « **وما ذاك ؟** » قلت : يا رسول اللّه ! نكون عندك . تذكرنا بالنار والجنة . حتى كأنا رأي عين . فإذا خرجنا من عندك ، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ، نسينا كثيرًا ، فقال رسول اللّه ﷺ : «**والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عنـدي ، وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فُرُشكم وفي طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة** » ثلاث مرات.

وفي رواية أخري عند مسلم أيضًا عن حنظلة قال : كنا عند رسول اللّه ﷺ . فوعظنا فذكر النار قال : ثم جئت إلى البيت فضاحكت الصبيان ولاعبت المرأة . قال فخرجت فلقيت أبا بكر فذكرت ذلك له . فقال : وأنا قد فعلت مثل ما تذكر . فلقينا رسول اللّه ﷺ . فقلت : يا رسول اللّه ! نافق حنظلة فقال : « مه » فحدثته بالحديث . فقال أبو بكر : وأنا قد فعلت مثل ما فعل . فقال : « **يا حنظلة ! ساعة وساعة . ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر، لصافحتكم الملائكة ، حتى تسلم عليكم في الطريق**».

فعلى ذلك يجدر بالمسلم أن يحرص بين الحين والآخر على سماع المحاضرات الدينية والمواعظ المبنية على كتاب اللّه والثابت الصحيح من

---

(١) اشتغالنا بهم ولاعبناهم ومازحناهم .

(٢) الضيعة هي مال الرجل وصنعته وأرضه .

سنة رسول اللَّه ﷺ بهذا يزكو قلبه ويرق ويلين بإذن اللَّه .

● وها هو نبينا محمد ﷺ يطلب من ابن مسعود أن يقرأ عليه القرآن فيقول ابن مسعود : أقرأ عليك وعليك أُنزل يا رسول اللَّه فيقول النبي ﷺ : « **إني أحب أن أسمعه من غيري** »، فيقرأ عليه ابن مسعود من سورة النساء حتى يصل إلى قوله تعالى : ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيداً**﴾ [النساء: ٤١]

فإذا عيناه تذرفان ﷺ .

ومن مفسدات القلوب : ترك صلاة الجمعة :

أخرج الإمام مسلم في « صحيحه » من حديث عبد اللَّه بن عمر وأبي هريرة رضي اللَّه عنهما أنهما سمعا رسول اللَّه ﷺ يقول على أعواد منبره : «**لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن اللَّه على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين** »[١] .

وفي « سنن النسائي » من حديث أبي الجعد الضمري أن النبي ﷺ قال: «**من ترك ثلاث جمع تهاونًا بها طبع اللَّه على قلبه**»[٢] .

ونحوه عن ابن ماجة[٣] من حديث جابر رضي اللَّه عنه مرفوعًا.

ولا شك ولا ريب أن علاج ذلك المحافظة على صلاة الجمعة والاستغفار من الذنوب التي تراكمت بسبب التخلف عنها .

---

(١) مسلم (حديث ٨٦٥) .

(٢) النسائي (٣/٨٨) وابن ماجة (١١٢٥) وإسناده صحيح لما بعده .

(٣) ابن ماجة (١١٢٦).

ومن مفسدات القلوب :

النظر إلى الصور التي في المجلات وغيرها ، من صور النساء العاريات والفتيات الحسناوات ، وصور المردان من الغلمان ، والاستطراد في قراءة القصص والمسلسلات الغرامية وسير أهل الشر والفساد ، كل ذلك مما يسبب في القلب فسادًا ودمارًا ، ويشغل القلب آناء الليل وأطراف النهار ، ويجعله في قلق دائم حتى يقضي شهوته ، وقد يقع في الفاحشة والعياذ باللَّه بسبب ذلك .

وعلاج ذلك بلا شك في تقوى اللَّه وغض البصر عن هذه المحرمات، وعدم إضاعة الوقت في قراءة مثل هذه القصص والمسلسلات ، وإبدال ذلك بالنظر في كتاب اللَّه وفي سنة رسول اللَّه ﷺ ، وفي تتبع سير أهل الصلاح وسير أهل العلم وأهل الفضل، والأبطال الشجعان الذي جاهدوا لنصرة هذا الدين وبذلوا في سبيل ذلك الغالي والنفيس، وجاهدوا في اللَّه حق جهاده حتى أتاهم اليقين، وهم يشهدون ألا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه .

- إنهم استبقوا الخيرات فأحدثت تلك الخيرات في قلوبهم رقة بفضل اللَّه .

- إنهم سارعوا إلى مغفرة من ربهم فأعُدت لهم الجنان ، وانعكست مسارعتهم إلى الخيرات على قلوبهم ؛ فأورثت بها تقوى ، وأحلت بها إيمانًا ، وأنزلت بها صلاحًا .

- إن أعمال البر التي عملها أهل الصلاح هؤلاء أثرت تأثيرًا إيجابيًّا

على سلامة قلوبهم فغسلتها من الذنوب وأورثتها رقة، وأزالت عنها قسوة، وأثبتت فيها الخشوع .

وها هي بعض قصصهم ، وهاهي بعض سيرهم ، وهاهي بعض نماذج البطولة وبعض أمثلة التضحية والفداء والبذل والعطاء علَّها وعساها أن تُحدث في القلب رقةً بإذن اللَّه .

* * *

نماذج من سير أهل الصلاح وأفعالهم

إنهم قوم اجتمعت فيهم خصال الخير :

أخرج مسلم[١] في « صحيحه » من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من أصبح منكم اليوم صائمًا ؟** » قال أبو بكر : أنا. قال : « **فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟** » قال أبو بكر : أنا : قال : « **فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا ؟** » قال أبو بكر : أنا . قال : « **فمن عاد منكم اليوم مريضًا ؟** » قال أبو بكر : أنا . فقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما اجتمعن في امرىءٍ إلا دخل الجنة** » .

وفي « الصحيحين »[٢] من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : سمعت رسول اللَّه يقول : « **من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل اللَّه دعي من أبواب ـ يعني الجنة ـ يا عبد اللَّه هذا خير ؛ فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام وباب الريان** » فقال أبو بكر : ما على هذا الذي يدعى من تلك الأبواب من ضرورة ، وقال : هل يدعى منها كلها أحد يا رسول اللَّه ؟ قال: « **نعم ، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر** » .

---

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٠٢٨) .

(٢) البخاري (حديث ٣٦٦٦) ومسلم (١٠٢٧) .

*** قوم بذلوا الغالي والنفيس لنصرة هذا الدين ، وأنفقوا في سبيله ما يملكون :**

أخرج أبو داود في « سننه »(١) من حديث عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه قال : أمرنا رسول اللَّه ﷺ يومًا أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا فجئت بنصف مالي فقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما أبقيت لأهلك ؟** » فقلت : مثله . قال : وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال له رسول اللَّه ﷺ : « **ما أبقيت لأهلك ؟** » قال : أبقيت لهم اللَّه ورسوله . قلت : لا أسابقك إلى شيءٍ أبدًا.

وفي مسند الإمام أحمد(٢) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من أنفق زوجًا ـ** أو قال ـ **زوجين ـ من ماله ـ** أراه قال : **في سبيل اللَّه ـ دعته خزنة الجنة يا مسلم هذا خير هلم إليه** » فقال أبو بكر : هذا رجل لا تودي(*) عليه فقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما نفعني مال قط إلا مال أبي بكر** » قال : فبكى أبو بكر وقال : وهل نفعني اللَّه إلا بك ، وهل نفعني اللَّه إلا بك ، وهل نفعني اللَّه إلا بك .

*** تعلَّموا التوحيد فأتقَنوه وعَلِموا أن المعبود هو اللَّه وحده سبحانه وأنه حي لا يموت :**

أخرج البخاري(٣) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها زوج النبي ﷺ أن

---

(١) أبو داود (حديث ١٦٦٢) والترمذي (٣٦٧٥) وإسناده حسن .

(٢) أحمد (٢/٣٦٦) .

(*) كذا في « المسند » المطبوع وصوابه : «لا توى» ـ بدون الدال ـ أي : لا هلاك لماله، وليس بخاسرٍ ما أنفقه في سبيل اللَّه ، ولم يذهب سُدًى . واللَّه أعلم.

(٣) البخاري (حديث ٣٦٦٧) .

رسول اللَّه ﷺ مات وأبو بكر بالسنح ـ قال إسماعيل : يعني بالعالية ـ فقام عمر يقول : واللَّه ما مات رسول اللَّه ﷺ قالت : وقال عمر : واللَّه ما كان يقعُ في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه اللَّه فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم ، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول اللَّه ﷺ فقبَّله فقال : بأبي أنت وأمي طبت حيًّا وميتًا والذي نفسي بيده لا يُذيقك اللَّه الموتتين أبدًا ثم خرج فقال : أيها الحالف على رسلك فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد اللَّه أبو بكر وأثنى عليه وقال : ألا من كان يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد اللَّه فإن اللَّه حيٌّ لا يموت وقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] وقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] قال : فنشج الناس يبكون .

قوم علموا أنهم لن يصيبهم إلا ما كتبه اللَّه لهم ، وأنه سبحانه هو حسبهم وكافيهم وأنه سبحانه معهم أينما كانوا :

● قال اللَّه تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١]

● وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾

[آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]

● علَّمهم نبيهم أن اللَّه معهم وأنه لن يخذلهم.

● ففي « الصحيحين »[1] أن أبا بكر رضي اللَّه عنه قال للنبي ﷺ وهما في الغار : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا ، فقال : « **ما ظنك يا أبا بكر باثنين اللَّه ثالثهما** » .

● فهكذا تعلموا ، وبهذا أيقنوا ، ومن ثمَّ هدأت قلوبهم ، واستراحت ضمائرهم ، وذهب الخوف عنهم .

* استجابوا للَّه وللرسول من بعد ما أصابهم القرح ، وما وهنوا لما أصابهم في سبيل اللَّه وما ضعفوا وما استكانوا

● أخرج البخاري ومسلم[2] من حديث عائشة رضي اللَّه عنها ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [آل عمران: ١٧٢] قالت لعروة : يا ابن أختي كان أبواك منهم : الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول اللَّه ﷺ وسلم ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا قال : « **من يذهب في إثرهم ؟** » فانتدب منهم سبعون رجلاً: كان فيهم أبو بكر والزبير .

* قوم وقفوا مع كتاب اللَّه لم يتجاوزوه ولم يقدموا رأيهم عليه ولم يقدموا حظوظ أنفسهم بين يديه :

● أخرج البخاري[3] حديث الإفك وفيه من حديث عائشة رضي اللَّه عنها فلما أنزلَ اللَّه في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي اللَّه عنه ـ وكان

---

(١) البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١) من حديث أبي بكر رضي اللَّه عنه .

(٢) البخاري (٤٠٧٧) ومسلم (٢٤١٨) .

(٣) البخاري (حديث ٤٧٥٠) .

ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره ـ : والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال ؛ فأنزل الله : ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] ، قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبدًا .

* قوم ما أكلوا الحرام ولا رضوا بالغش ولا بالخداع ولا بالحيل

● أخرج البخاري(١) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه ، فجاء يومًا بشيء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام : أتدري ما هذا ؟ فقال أبو بكر: وما هو ؟ قال : كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية ، وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته فأعطاني بذلك ، فهذا الذي أكلت منه . فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه .

* إنهم قوم آمنوا بالله ولزموا الجد والجود ففرَّت منهم الشياطين :

أخرج البخاري(٢) من طريق زيد بن أسلم عن أبيه قال : سألني ابن عمر عن بعض شأنه ـ يعني عمر ـ فأخبرته فقال : ما رأيت أحدًا قط بعد

---

(١) البخاري (حديث ٣٨٤٢) .

(٢) البخاري (حديث ٣٦٨٧) ومسلم (حديث ٢٣٩٦) .

رسول اللَّه ﷺ من حين قبض كان أجدَّ وأجود حتى انتهى من عمر بن الخطاب.

● وأخرج البخاري ومسلم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي اللَّه عنه قال : استأذن عمر بن الخطاب على رسول اللَّه ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر بن الخطاب قمن فبادرن الحجاب فأذن له رسول اللَّه ، فدخل عمر ورسول اللَّه ﷺ يضحك فقال : أضحك اللَّه سنك يا رسول اللَّه ، فقال النبي ﷺ : **«عجبت من هؤلاء اللاتي كُنَّ عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب»** قال عمر : فأنت أحق أن يهبن يا رسول اللَّه ، ثم قال عمر : يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول اللَّه ﷺ ؟ فقلن : نعم أنت أفظ وأغلظ من رسول اللَّه ﷺ فقال رسول اللَّه ﷺ : « **إيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًّا قط إلا سلك فجًّا غير فجك** »[1] .

وأخرج الإمام أحمد[2] بسند حسن عن بريدة رضي اللَّه عنه أن أمة سوداء أتت رسول اللَّه ﷺ ورجع من بعض مغازيه فقالت: إني نذرت إن ردك اللَّه صالحًا أن أضرب عندك بالدف قال : « **إن كنت فعلت فافعلي ، وإن**

---

(١) قال النووي في « شرح مسلم » (٥/٢٥٨) : هذا الحديث محمول على ظاهره أن الشيطان متى رأى عمر سالكًا فجًّا هرب هيبةً من عمر ، وفارق ذلك الفج ، وذهب في فج آخر لشدة خوفه من بأس عمر أن يفعل فيه شيئًا ، قال القاضي : يحتمل أنه ضرب مثلاً لبعد الشيطان وإغوائه منه ، وأن عمر في جميع أموره سالك طريق السداد خلاف ما يأمر به الشيطان، والصحيح الأول .

وذكر الحافظ ابن حجر أقوالاً ثم قال : ولا يلزم من ذلك ثبوت العصمة له ؛ لأنها في حق النبي ﷺ واجبة ، وفي حق غيره ممكنة .

(٢) أحمد (٥/٣٥٣) .

كنت لم تفعلي فلا تفعلي» فضربت فدخل أبو بكر وهي تضرب ، ودخل غيره وهي تضرب ، ثم دخل عمر قال : فجعلت دفها خلفها وهي مقنعة ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « إن الشيطان ليفرق منك يا عمر » . أنا جالس ها هنا ودخل هؤلاء فلما أن دخلت فعلت ما فعلت .

• قوم لم يغتروا بصالح أعمالهم :

• أخرج البخاري[1] من حديث المسور بن مخرمة رضي اللَّه عنه قال: لما طعن عمر جعل يألم فقال له ابن عباس ـ وكأنه يجزعه ـ : يا أمير المؤمنين ، ولئن كان ذاك ، لقد صحبت رسول اللَّه ﷺ فأحسنت صحبته ، ثم فارقته وهو عنك راضٍ ، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته ثم فارقته وهو عنك راضٍ ، ثم صحبت صحبتهم فأحسنت صحبتهم ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون . قال : أما ما ذكرت من صحبة رسول اللَّه ﷺ ورضاه فإنما ذاك منٌّ من اللَّه تعالى مَنَّ به علي ، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه فإنما ذاك منٌّ من اللَّه جل ذكره مَنَّ به علي ، وأما ما ترى من جزعي فهو من أجلك وأجل أصحابك ، واللَّه لو أن لي طلاع الأرض ذهبًا لافتديت به من عذاب اللَّه عز وجل قبل أن أراه .

* إنهم قوم استحيوا من اللَّه وراقبوه في السر والعلن فاستحيت منهم الملائكة :

• أخرج الإمام[2] مسلم رحمه اللَّه من حديث عائشة رضي اللَّه عنها قالت: كان رسول اللَّه ﷺ مضطجعًا في بيتي كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه،

---

(١) البخاري (حديث ٣٦٩٢) .

(٢) مسلم (حديث ٢٤٠١) .

فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث ، ثم استأذن عثمان فجلس رسول اللَّه ﷺ وسوى ثيابه ـ قال محمد : ولا أقول ذلك في يوم واحد ـ فدخل فتحدث فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ! فقال : « **ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة** » .

* إنهم رجال صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه :

أخرج البخاري[1] من حديث أنس رضي اللَّه عنه قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول اللَّه غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن اللَّه أشهدني قتال المشركين ليرين اللَّه ما أصنع ، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني أصحابه ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين ، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد ، قال سعد : فما استطعت يا رسول اللَّه ما صنع . قال أنس : فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه ، قال أنس : كنا نرى ـ أو نظن ـ أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾ [الأحزاب: ٢٣] إلى آخر الآية .

وقال: إن أخته ـ وهي تسمى الربيع ـ كسرت ثنية امرأة فأمر رسول اللَّه

---

(١) البخاري (حديث ٢٨٠٥) .

ﷺ بالقصاص فقال أنس : يا رسول اللَّه ، والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها فرضوا بالأرش وتركوا القصاص فقال : رسول اللَّه ﷺ : « **إن من عباد اللَّه من لو أقسم على اللَّه لأبره** ».

*** إنهم قوم جاهدوا فصبروا ، وثبتوا ومافروا :**

● أخرج أبو داود(١) وأحمد بإسناد صحيح عن علي رضي اللَّه عنه قال: تقدم - يعني عتبة بن ربيعة - وتبعه ابنه وأخوه فنادى من يُبارز ؟ فانتدب له شباب من الأنصار فقال : من أنتم ؟ فأخبروه فقال : لا حاجة لنا فيكم إنما أردنا بني عمنا ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « **قم يا حمزة قم يا علي قم يا عبيدة بن الحارث** » فأقبل حمزة إلى عتبة وأقبلت إلى شيبة واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان فأثخن كل واحد منهما صاحبه ثم ملنا على الوليد فقتلناه واحتملنا عبيدة .

● وأخرج البخاري(٢) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه عنهما قال: أمر رسول اللَّه ﷺ في عزوة مؤتة زيد بن حارثة فقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن قُتل زيد فجعفر وإن قتل جعفر فعبد اللَّه بن رواحة** » قال عبد اللَّه : كنت فيهم في تلك العزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورمية.

وفي بعض الروايات : ليس منها في بره يعني في ظهره(٣) .

---

(١) أبو داود (حديث ٢٦٦٥) وأحمد (١/ ١١٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٦١) .

(٣) عند البخاري (٤٢٦٠) .

● وأخرج ابن سعد في « الطبقات »[١] بإسناد حسن لغيره :

عن ابن عباس قال : لما قتل حمزة يوم أحد أقبلت صفية تطلبه لا تدري ما صنع قال : فلقيت عليًّا والزبير فقال علي للزبير : اذكر لأمك ، قال الزبير : لا بل اذكر أنت لعمتك، قالت : ما فعل حمزة ؟ قال فأريها أنهما لا يدريان قال : فجاء النبي ﷺ فقال : « **إني أخاف على عقلها** » قال : فوضع يده على صدرها ودعا لها فاسترجعت وبكت ، ثم جاء وقام عليه وقد مثل به فقال : « **لولا جزع النساء لتركته حتى يحشر من حواصل الطير وبطون السباع** » . قال : ثم أمر بالقتلى فجعل يصلي عليهم فيضع تسعة وحمزة فيكبر عليهم سبعًا ثم يرفعون ويترك حمزة ثم يجاء بتسعة فيكبر عليهم حتى فرغ منهم.

● وأخرج أبو يعلى[٢] الموضع من حديث أنس رضي اللَّه عنه أن أبا طلحة قرأ سورة (براءة) فأتى على هذه الآية ﴿**انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً**﴾ [التوبة: ٤١] فقال : ألا أرى ربي يستنفرني شابًّا وشيخًا ؟ جهزوني فقال له بنوه: قد غزوت مع رسول اللَّه ﷺ حتى قبض ، وغزوت مع أبي بكر حتى مات، وغزوت مع عمر ، فنحن نغزوه عنك فقال : جهزوني فجهزوه ، فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فلم يتغير.

---

(١) « الطبقات » (٣/ ١/ ٧) .

(٢) أبو يعلى (٦/ ١٣٨) .

* إنهم قوم ملأ الإيمان قلوبهم فلم يخشوا في اللَّه لومة لائم

● أخرج الإمام أحمد[١] بإسناد حسن من حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي ، أمنا على ديننا وعبدنا اللَّه تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئًا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم فجمعوا له أدمًا كثيرًا ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد اللَّه بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي وعمرو بن العاص بن وائل السهمي وأمروهما أمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم ، ثم قدما للنجاشي هداياه ، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم . قالت : فخرجا فقدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار وخير جار فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي ، ثم قالا : لكل بطريق منهم إنه قد صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لنردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ؛ فإن قومهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم فقالوا : نعم ، ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي فقلبها منهما ثم كلماه فقالا له : أيها الملك إنه قد صبأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجآءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف

(١) أحمد (٥/ ٢٩٠) .

قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه . قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد اللّه بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم ، فقالت بطارقته حوله : صدقوا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليردانهم إلى بلادهم وقومهم . قالت : فغضب النجاشي ثم قال : لا هايم اللّه إذًا لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قومًا جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني . قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول اللّه ﷺ فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه قالوا : نقول واللّه ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوه وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ليسألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم ؟ قالت : فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له : أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية: نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث اللّه إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى اللّه تعالى لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدم ، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد اللّه وحده لا

نشرك به شيئًا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام قال : فعدد عليه أمور الإسلام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به ، فعبدنا اللَّه وحده فلم نشرك به شيئًا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ففتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة اللَّه ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، ولما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك ، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك . قالت : فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن اللَّه من شيء . قالت : فقال له جعفر: نعم . فقال له النجاشي : فاقرأه عليَّ . فقرأ عليه صدرًا من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم] . قالت : فبكى واللَّه النجاشي حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فواللَّه لا أسلمهم إليكم أبدًا ولا أكاد . قالت أم سلمة رضي اللَّه عنها : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: واللَّه لآتينه غدًا أعيبهم عنده ثم أستأصل به خضراءهم . قالت : فقال له عبد اللَّه بن أبي ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ : لا تفعل فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا . قال : واللَّه لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عليهما السلام عبد . قالت : ثم غدا عليه الغد فقال له : أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيمًا ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه . قالت أم سلمة : فأرسل إليهم يسألهم عنه قالت : ولم ينزل بنا مثلها ، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه قالوا : نقول واللَّه فيه ما قال اللَّه سبحانه وتعالى وما جاء به نبينا ﷺ كائنًا في ذلك ما هو كائن . فلما دخلوا عليه قال

لهم : ما تقولون في عيسى بن مريم ؟ فقال له جعفر بن أبي طالب رضي اللَّه عنه : نقول فيه الذي جاء به نبينا ﷺ ، هو عبد اللَّه ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت : فضرب النجاشي يده على الأرض فأخذ منها عودًا ثم قال : ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، فناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال فقال : وإن نخرتم واللَّه اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي - والسيوم الآمنون - من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم ، فما أحب أن لي دير ذهب وأني آذيت رجلاً منكم، والدير بلسان الحبشة الجبل ، ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها فواللَّه ما أخذ اللَّه مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع في الناس فأطيعهم فيه قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار، قالت : فواللَّه إنا على ذلك إذ نزل به يعني من ينازعه في ملكه قالت : فواللَّه ما علمنا حزنًا قط كان أشد من حزنٍ حزناه عند ذلك تخوفًا أن يظهر ذلك على النجاشي فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه قالت : وسار النجاشي وبينهما عرض النيل قالت : فقال أصحاب رسول اللَّه ﷺ من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر قالت : فقال الزبير بن العوام رضي اللَّه عنه : أنا. قالت : وكان من أحدث القوم سنًّا قالت : فنفخوا له قربة فجلعها في صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم قالت : ودعونا اللَّه تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده ، واستوثق عليه أمر الحبشة ، فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول اللَّه ﷺ وهو بمكة .

*** إنهم رجال تحملوا في سبيل نصرة دينهم غاية التحمل ، وجاهدوا حق الجهاد :**

● أخرج البخاري[١] من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : بعث رسول اللَّه ﷺ عشرة عينًا وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب ، حتى إذا كانوا بالهدة بين عسفان ومكة ذُكِروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان ، فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رامٍ فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر في منزل نزلوه فقالوا : تمر يثرب ، فاتبعوا آثارهم فلما حس بهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى موضع فأحاط بهم القوم فقالوا لهم : انزلوا فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحدًا . فقال عاصم بن ثابت: أيها القوم أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر ثم قال: اللهم أخبر عنا نبيك ﷺ ، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصمًا ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق منهم خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر . فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم بها قال الرجل الثالث : هذا أول الغدر واللَّه لا أصحبكم إن لي بهؤلاء أسوة ـ يريد القتلى ـ فجرروه وعالجوه فأبي أن يصحبهم . فانطلق بخبيب وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بعد وقعة بدر فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيبًا ـ وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر ـ فلبث خبيب عندهم أسيرًا حتى أجمعوا قتله، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحد بها فأعارته ، فدرج بُنيٌّ وهي غافلة حتى أتاه فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده قالت : ففزعت فزعة عرفها خبيب فقال : أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك . قالت :

---

(١) البخاري (حديث ٣٩٨٩) .

واللَّه ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب ، واللَّه لقد وجدته يومًا يأكل قطفًا من عنب في يده وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة ، وكانت تقول : إنه لرزق رزقه اللَّه خبيبًا . فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحِل قال لهم خبيب : دعوني أصلي ركعتين فتركوه فركع ركعتين فقال : واللَّه لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت ثم قال : اللهم أحصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تبق منهم أحدًا ثم أنشأ يقول :

فلست أبالي حين أُقتل مسلما   على أي جنب كان للَّه مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله ، وكان خبيب هو سنَّ لكل مسلم قُتل صبرًا الصلاة ، وأخبر ـ يعني النبيَّ ﷺ ـ أصحابه خبرهم ، وبعث ناس من قريش إلى عاصم بن ثابت حين حدثوا أنه قتل أن يؤتوا بشيء منه يعرف ـ وكان قتل رجلاً عظيمًا من عظمائهم ـ فبعث اللَّه لعاصم مثل الظلة من الدبر فحمته من رسلهم فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئًا .

* وها هو البطل المقدام عمير بن الحُمام رضي اللَّه عنه:

أخرج الإمام مسلم[1] في «صحيحه» من حديث أنس بن مالك رضي اللَّه عنه قال : بعث رسول اللَّه ﷺ بُسيسة عينًا ينظر ما صنعت عير أبي سفيان ، فجاء وما في البيت أحد غيري وغير رسول اللَّه ﷺ : (قال : لا أدري ما استثني بعض نسائه) قال : فحدثه الحديث قال : فخرج رسول اللَّه ﷺ فتكلم فقال : « **إن لنا طلبة فمن كان ظهره حاضرًا فليركب معنا** » فجعل رجال يستأذنونه في ظهرانهم في علو المدينة فقال : « **لا إلا من كان ظهره**

---
(١) مسلم (حديث ١٩٠) .

حاضراً » فانطلق رسول اللَّه ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون فقال رسول اللَّه ﷺ : « **لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه** »، فدنا المشركون فقال رسول اللَّه ﷺ : « **قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض** » قال : يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول اللَّه جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : « **نعم** » قال : بخ بخ فقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما يحملك على قول بخٍ بخٍ** » قال : لا واللَّه يا رسول اللَّه إلا رجاءة أن أكون من أهلها قال : « **فإنك من أهلها** » ، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة قال : فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل .

* وها هي قصة قتل عمر ، فيها معتبرٌ وفيها مُدكر لمن ألقى السمع وهو شهيد

● أخرج البخاري(١) من طريق عمرو بن ميمون قال ميمون قال : رأيت عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه قبل أن يُصاب بأيام بالمدينة ووقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف قال : كيف فعلتما ؟ أتخافان أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق ؟ قالا : حملناها أمرًا هي له مطيقة ، ما فيها كبير فضل . قال : انظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق . قالا : لا . فقال عمر : لئن سلمني اللَّه لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبدًا . قال : فما أتت عليه إلا رابعة حتى أصيب قال : إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبد اللَّه بن عباس ـ غداة أصيب ـ وكان إذا مرَّ بين الصفين قال: استووا حتى إذا لم ير فيهم خَللاً تقدم فكبر ، وربما قرأ سورة يوسف

(١) البخاري (حديث ٣٧٠٠) .

أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول : قتلني ـ أو أكلني ـ الكلب حين طعنه فطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينًا ولا شمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة ، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسًا فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان اللَّه فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال : يا ابن عباس انظر من قتلني فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة قال : الصنع ؟ قال : نعم قال : قاتله اللَّه لقد أمرت به معروفًا ، والحمد اللَّه الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الإسلام ، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة ، وكان العباس أكثرهم رقيقًا فقال : إن شئت فعلت ـ أي إن شئت قتلنا قال : كذبت بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا قبلتكم ، وحجوا حجكم ؛ فاحتمل إلى بيته، فانطلقنا معه، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ فقائل يقول: لا بأس، وقائل يقول: أخاف عليه ، فأتى بنبيذ فشربه فخرج من جوفه ، ثم أتى بلبن فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه وجاء الناس فجعلوا يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى اللَّه لك من صحبة رسول اللَّه ﷺ وقدمٍ في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، قال : وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض قال : ردوا عليَّ الغلام . قال : يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أبقى لثوبك وأتقى بربك ، يا عبد اللَّه بن عمر انظر ما علي من الدَّيْن فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوه قال : إن وفى له مال آل عمر فأده

من أموالهم ، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تَفِ أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم فأد عني هذا المال ، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل : يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين ، فإني لست اليوم للمؤمنين أميرًا وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ، فسلم واستأذن . ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال : يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسي ، ولأوثرنه به اليوم على نفسي ، فلما أقبل ، قيل : هذا عبد اللَّه بن عمر قد جاء قال : ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال : ما لديك ؟ قال : الذي تحب يا أمير المؤمنين أذنت ، قال : الحمد للَّه ما كان من شيء أهم إلي من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملوني ثم سلم، فقل: يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين ، وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها، فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال فولجت داخلاً لهم فسمعنا بكاءها من الداخل فقالوا : أوص يا أمير المؤمنين استخلف قال : ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر ـ أو الرهط ـ الذين توفي رسول اللَّه ﷺ وهو عنهم راضٍ فسمى عليًّا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وعبد الرحمن ، وقال : يشهدكم عبد اللَّه بن عمر ، وليس له من الأمر شيء كهيئة التعزية له ـ فإن أصابت الإمرة سعدًا فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر ، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة ، وقال : أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار خيرًا الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يقبل من محسنهم وأن يعفي عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيرًا ، فإنهم ردء الإسلام وجباةُ المال وغيظ

العدو ، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم ، وأوصيه بالأعراب خيرًا، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يؤخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة اللَّه وذمة رسوله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم ، فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد اللَّه بن عمر قال : يستأذن عمر بن الخطاب قالت : أدخلوه فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه ، فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم فقال الزبير : قد جعلت أمري إلى علي، فقال : طلحة قد جعلت أمري إلى عثمان وقال سعد : قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف ، فقال عبد الرحمن بن عوف: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه ، واللَّه عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه ؟ فأسكت الشيخان فقال عبد الرحمن : أفتجعلونه إلي واللَّه علي أن لا آلو عن أفضلكم ؟ قالا : نعم فأخذ بيد أحدهما فقال : لك قرابة من رسول اللَّه ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت، فاللَّه عليك لئن أمرتك لتعدلن ، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن ، ثم خلا بالآخر فقال مثل ذلك ، فلما أخذ الميثاق قال : ارفع يدك يا عثمان فبايعه فبايع له علي وولج أهل الدار فبايعوه .

* كانوا أوفياء لإخوانهم بعد موت الإخوان :

● أخرج البخاري[١] في « صحيحه » من طريق زيد بن أسلم عن أبيه قال خرجت مع عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه إلى السوق فلحقت عمر امرأة شابة فقالت : يا أمير المؤمنين هلك زوجي وترك صبية صغارًا ، واللَّه

---

(١) البخاري (٤١٥٥) .

ما ينضجون كراعًا ولا لهم زرع ولا ضرع ، وخشيت أن تأكلهم الضبع ، وأنا بنت خفاف بن إيماء الغفاري ، وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ . فوقف معها عمر ولم يمضِ ثم قال : مرحبًا بنسب ثريب ، ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطًا في الدار فحمل عليه غرارتين ملأهما طعامًا ، وحمل بينهما نفقة وثيابًا ثم ناولها بخطامه ثم قال : اقتاديه فلن يفنى حتى يأتيكم اللَّه بخير . فقال رجل : يا أمير المؤمنين أكثرت لها قال عمر : ثكلتك أمك، واللَّه إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنًا زمانًا فافتتحاه ، ثم أصبحنا نستفيء سهماننا فيه .

* هذه هي أمنياتهم :

● أخرج الحاكم في «مستدركه»[(١)] بسند حسن عن عمر رضي اللَّه عنه أنه قال لأصحابه : تمنوا فقال بعضهم : أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبًا أنفقه في سبيل اللَّه وأتصدق ، وقال رجل : أتمنى لو أنها مملوءة زبرجدًا وجوهرًا فأنفقه في سبيل اللَّه وأتصدق، ثم قال عمر: تمنوا، فقالوا: ما ندرى يا أمير المؤمنين فقال عمر : أتمنى لو أنها مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة وحذيفة بن اليمان .

* حرصوا على العلم فآتاهم اللَّه إياه :

● أخرج الدارمي[(٢)] بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : لما توفي رسول اللَّه ﷺ قلت لرجل من الأنصار : يا فلان هلم فلنسأل أصحاب النبي

---

(١) الحاكم « المستدرك » (٣/ ٢٢٦) .

(٢) الدارمي (١/ ١٤١ ـ ١٤٢) .

ﷺ فإنهم اليوم كثير فقال : واعجبًا لك يا ابن عباس أترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ من ترى ؟ فترك ذلك وأقبلت على المسألة فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل ، فأتوسد ردائي على بابه فتسفي الريح على وجهي التراب ، فيخرج فيراني فيقول : يا ابن عم رسول اللَّه ما جاء بك ؟ ألا أرسلت إلي فآتيك ؟! فأقول : أنا أحق أن آتيك ، فأسأله عن الحديث قال : فبقي الرجل حتى رآني وقد اجتمع الناس علي فقال : كان هذا الفتى أعقل مني .

* وحرصوا على الإيمان فوفقهم اللَّه إليه :

● أخرج البخاري ومسلم(١) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فأنزل عليه سورة الجمعة : ﴿**وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ**﴾ [الجمعة: ٣] قال : قلت : من هم يا رسول اللَّه ؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثًا وفينا سلمان الفارسي وضع رسول اللَّه ﷺ يده على سلمان ثم قال : « **لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال - أو رجل - من هؤلاء** » .

* وها هو سلمان وبحثه عن الحقيقة :

● أخرج الإمام أحمد(٢) رحمه اللَّه من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي اللَّه عنهما قال : حدثني سلمان الفارسي حديثه من فيه قال : كنت رجلاً فارسيًّا من أهل أصبهان من أهل قرية منها يقال لها جى ، وكان أبي دهقان

---

(١) البخاري (٤٨٩٧) ومسلم (٢٥٤٦) .

(٢) أحمد (٥/ ٤٤١) وإسناده حسن .

قريته ، وكنت أحب خلق اللَّه إليه ، فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته - أي ملازم النار - كما تحبس الجارية ، وأجهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة . قال : وكانت لأبي ضيعة عظيمة قال : فشغل في بنيان له يومًا فقال لي : يا بني إنى قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب فاطلعها ، وأمرني فيها ببعض ما يريد. فخرجت أريد ضيعته فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته ، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون. قال : فلما رأيتهم أعجبني صلاتهم ، ورغبت في أمرهم ، وقلت : هذا واللَّه خير من الدين الذي نحن عليه ، فواللَّه ما تركتهم حتى غربت الشمس. وتركت ضيعة أبي ولم آتها ، فقلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟ قالوا : بالشام قال : ثم رجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله قال : فلما جئته قال : أي بني أين كنت ؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت قال : قلت : يا أبت مررت بناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم ، فواللَّه ما زلت عندهم حتى غربت الشمس قال : أي بنى ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه قال : قلت : كلا واللَّه إنه خير من ديننا قال : فخافني ، فجعل في رجلي قيدًا ثم حبسني في بيته قال : وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم قال : فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى قال : فأخبروني بهم قال : فقلت لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلدهم فآذنوني بهم قال : فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم ، فألقيت الحديد من رجلي ، ثم خرجت معهم حتى قدمت

الشام ، فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين ؟ قالوا : الأسقف في الكنيسة قال : فجئته فقلت : إني قد رغبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك ، وأتعلم منك وأصلي معك قال : فادخل فدخلت معه قال : فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه منها أشياء اكتنزه لنفسه ، ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق قال : وأبغضته بغضًا شديدًا لما رأيته يصنع ، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء ، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئًا قالوا : وما علمك بذلك ؟ قال قلت : أنا أدلكم على كنزه قالوا : فدلنا عليه قال : فأريتهم موضعه قال : فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبًا وورقًا قال : فلما رأوها قالوا : واللَّه لا ندفنه أبدًا ، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة . ثم جاءوا برجل آخر فجعلوه بمكانه قال يقول سلمان : فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلاً ونهارًا منه قال : فأحببته حبًّا لم أحبه من قبله ، وأقمت معه زمانًا ثم حضرته الوفاة فقلت له : يا فلان إني كنت معك وأحببتك حبًّا لم أحبه من قبلك ، وقد حضرك ما ترى من أمر اللَّه ، فإلى من توصي بي وما تأمرني ؟ قال : أي بني ، واللَّه ما أعلم أحدًا اليوم على ما كنت عليه ، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه ، إلا رجلاً بالموصل وهو فلان فهو على ما كنت عليه فالحق به . قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل فقلت له : يا فلان إن فلانًا أوصاني عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك على أمره قال فقال لي : أقم عندي فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان إن فلانًا أوصى بي إليك وأمرني باللحوق

بك ، وقد حضرك من اللَّه عز وجل ما ترى ، فإلى من توصي بي وما تأمرني ؟ قال : أي بني ، واللَّه ما أعلم رجلاً على مثل ما كانا عليه إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به . قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فجئته فأخبرته بخبري وما أمرني به صاحبي قال : فأقم عندي ، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل فواللَّه ما لبثت أن نزل به الموت . فلما حضر قلت له : يا فلان إن فلانًا كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من توصى بي وما تأمرني ؟ قال : أي بني ، واللَّه ما نعلم أحدًا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية فإنه بمثل ما نحن عليه فإن أحببت فأته قال : فإنه على أمرنا . قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبري فقال : أقم عندي فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم . قال : واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة . قال : ثم نزل به أمر اللَّه ، فلما حضر قلت له : يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي فلان إلى فلان ، وأوصى بي فلان إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من توصي بي وما تأمرني ؟ قال : أي بني، واللَّه ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب مهاجرًا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل ، به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل . قال : ثم مات وغيب فمكثت بعمورية ما شاء اللَّه أن أمكث . ثم مر بي نفر من كلب تجارًا فقلت لهم : تحملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه ؟ قالوا : نعم . فأعطيتهموها وحملوني، حتى إذا قدموا بي وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل من يهود عبدًا ، فكنت

عنده ورأيت النخل، ورجوت أن تكون البلد الذي وصف لي صاحبي . ولم يحق لي في نفسي ، فبينما أنا عنده قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة ، فواللَّه ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي ، فأقمت بها . وبعث اللَّه رسوله ﷺ، فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق . ثم هاجر إلى المدينة فواللَّه إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل ، وسيدي جالس إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال : فلان قاتل اللَّه بني قيلة ، واللَّه إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي قال : فلما سمعتها أخذتني العرواء حتى ظننت سأسقط على سيدي قال: ونزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك : ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ قال : فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة ثم قال : مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك قال : قلت : لا شيء ، إنما أردت أن استثبت عما قال ، وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول اللَّه ﷺ وهو بقباء ، فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم قال : فقربته إليه فقال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه : « **كلوا** » وأمسك يده فلم يأكل قال : فقلت في نفسي : هذه واحدة . ثم انصرفت عنه فجمعت شيئًا ، وتحول رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة ، ثم جئت به فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها قال : فأكل رسول اللَّه ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه قال : فقلت : في نفسي هاتان اثنتان . ثم جئت رسول اللَّه ﷺ وهو في الغرقد قال : وقد تبع جنازة من أصحابه عليه شملتان له وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه . ثم استدرت

أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي ؟ فلما رآني رسول اللَّه ﷺ استدرته عرف أني أستثبت في شيء وُصف لي قال : فألقى رداءه عن ظهره ، فنظرت إلى الخاتم فعرفته ، فانكببت عليه أقبله وأبكي فقال لي رسول اللَّه ﷺ : « **تحول** » فتحولت فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس قال : فأعجب رسول اللَّه ، أن يسمع ذلك أصحابه .

ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول اللَّه ﷺ بدرًا وأحدًا قال : ثم قال لي رسول اللَّه ﷺ : كاتب يا سلمان فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أجبيها له بالفقير وبأربعين أوقية ، فقال رسول اللَّه لأصحابه : أعينوا أخاكم فأعانوني بالنخل الرجل بثلاثين ودية ، والرجل بعشرين ، والرجل بخمس عشرة ، والرجل بعشر - يعني الرجل بقدر ما عنده - حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية فقال لي رسول اللَّه ﷺ : « **اذهب يا سلمان ففقر لها فإذا فرغت فائتني أكون أنا أضعها بيدي** » . ففقرت لها وأعانني أصحابي ، حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته ، فخرج رسول اللَّه ﷺ معي إليها فجعلنا نقرب له الودي ويضعه رسول اللَّه بيده ، فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة . فأديت النخل وبقي علي المال . فأتى رسول اللَّه بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي فقال : « **ما فعل الفارسي المكاتب ؟** » قال : فدعيت له فقال : « **خذ هذه فأد بها ما عليك يا سلمان** » فقلت : وأين تقع هذه يا رسول اللَّه مما علي ؟ قال : « **خذها فإن اللَّه عز وجل سيؤدي بها عنك** » قال : فأخذتها فوزنت لهم منها ، والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية فأوفيتهم حقهم ، وعتقت فشهدت مع رسول اللَّه ﷺ الخندق ، ثم لم يفتني معه مشهد .

*** قوم آثروا إخوانهم على أنفسهم :**

● أخرج البخاري[١] من حديث أنس رضي اللَّه عنه أنه قال : قدم علينا عبد الرحمن بن عوف وآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع ـ وكان كثير المال ـ فقال سعد : قد علمت الأنصار أني من أكثرها مالاً سأقسم مالي بيني وبينك شطرين ، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها حتى إذا حلَّت تزوجتها . فقال عبد الرحمن : بارك اللَّه لك في أهلك . فلم يرجع يومئذ حتى أفضــل شيئًا من سمن وأقط ، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى جاء رسول اللَّه ﷺ وعليه وضرٌ من صفرة فقال له رسول اللَّه ﷺ : « **مهيم؟** » قال: تزوجت امرأة من الأنصار ، قال : « **ما سقت فيها ؟** » قال : وزن نواة من ذهب ـ أو نواة من ذهب ـ فقال : « **أولم ولو بشاة** » .

*** وهذه نماذج من أوجه الإنفاق والإيثار :**

● أخرج البخاري ومسلم[٢] من حديث أنس بن مالك رضي اللَّه عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول اللَّه ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال : أنس فلما أنزلت هذه الآية : ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول اللَّه ﷺ فقال : يا رسول اللَّه إن اللَّه تبارك وتعالى يقول : ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [آل عمران: ٩٢] وإن أحب أموالي إليَّ بيرحاء ، وإنها صدقة للَّه أرجو برها وذخرها عند اللَّه ، فضعها يا رسول اللَّه حيث أراك اللَّه قال :

---

(١) البخاري (حديث ٣٧٨١) .

(٢) البخاري (١٤٦١) ومسلم (٩٩٨) .

فقال رسول اللَّه ﷺ : «**بخ ، ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعت ما قلت ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين** » فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول اللَّه. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبنى عمه .

● وأخرج عبدُ بن حميد في « المنتخب »[1] من حديث : أنس أن رجلاً قال : يا رسول اللَّه إن لفلان نخلة وإنما أقيم حائطي بها، فأمره أن يعطني إياها حتى أقيم حائطي بها . فقال له النبي ﷺ : «**أعطها إياه بنخلة في الجنة** » فأبى فأتاه أبو الدحداح فقال : بعني نخلتك بحائطي قال : ففعل قال: فأتى النبي ﷺ فقال : يا رسول اللَّه إني قد ابتعت النخلة بحائطي ، فاجعلها له وقد أعطيتكها فقال رسول اللَّه ﷺ : «**كم من عذق رواح لأبي الدحداح في الجنة** » قالها مراراً . قال : فأتى امرأته فقال : يا أم الدحداح اخرجي من الحائط فإني قد بعته بنخلة في الجنة فقالت : ربح البيع ، أو كلمة تشبهها .

* قوم ، وإن اعترت وجوه بعضهم دمامةٌ لكن قلوبهم بيضاء :

● أخرج أبو يعلى[2] بإسناد حسن من حديث أنس رضي اللَّه عنه قال: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يقال له جليبيب في وجهه دمامة فعرض عليه رسول اللَّه ﷺ التزويج فقال : إذًا تجدني كاسدًا فقال : « **غير أنك عند اللَّه لست بكاسد** » .

---

(١) « المنتخب » (بتحقيقي حديث ١٣٣٢) ، وإسناده صحيح .

(٢) أبو يعلى (٦/ ٨٩) .

● وأخرج مسلم [١] من حديث أبي بــرزة رضي اللَّه عنه أن النبي ﷺ كان في مغزى له فأفاء اللَّه عليه فقال لأصحابه : « **هل تفقدون من أحد** » قالوا: نعم فلانًا وفلانًا وفلانًا ثم قال : « **هل تفقدون من أحد** » قالوا : نعم فلانًا وفلانًا وفلانًا ثــم قــال : « **هل تفقدون من أحد؟**» قالوا : لا . قــال : «**لكني أفقد جليبيبًا فاطلبوه** » فطلب في القتلى فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه ، فأتى النبي ﷺ فوقف عليه فقال : « **قتل سبعة ثم قتلوه ، هذا مني وأنا منه هذا مني وأنا منه** » قال : فوضعــه على ساعديــه ليــس له إلا ساعدا النبي ﷺ قال : فحفر له ووضع في قبــره ، ولم يذكر غسلاً .

*** فلهذا استجيبت دعواتهم ، فها هو سعد :**

● أخرج البخاري [٢] من حديث جابر بن سمرة قال : شكا أهل الكوفة سعدًا إلى عمر رضي اللَّه عنه فعزله واستعمل عليهم عمارًا فشكوا حتى ذكروا

---

(١) مسلم (٢٤٧٢) .

وعند أحمد (٤/ ٤٢٥) في أول هذا الحديث : أن جليبيبًا كان من الأنصار . وكان أصحاب النبي ﷺ إذا كــان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم أللنبي ﷺ فيها حاجة أم لا؟ فقال رسول اللَّه ﷺ ذات يــوم لرجل من الأنصار : زوجني ابنتك ، فقال : نعم ونعمة عين فقال له : إني لست لنفسي أريدها قال : فلمن ؟ قال : لجليبيب قال : حتى استأمر أمها فأتاها فقال : إن رسول اللَّه ﷺ يخطب ابنتك قالت : نعم ونعمة عين زوج رسول اللَّه . قال : إنه ليس يريدها لنفسه قالت : فلمن ؟ قال : لجليبيب قالت : حلقى أجليبيب أنيه ؟ مرتين ، لا لعمر اللَّه ، لا أزوج جليبيبًا قال : فلما قام أبوها ليأتي النبــي ﷺ . قالــت الفتاة لأمها من خدرها : من خطبني إليكما ؟ قالت : النبي ﷺ . قالت : فتردون على النبي ﷺ أمره ؟ ادفعوني إلى النبي ﷺ فإنه لا يضيعني . فأتى أبوها النبي ﷺ فقال : شأنك بها ، فزوجها جليبيبًا . ثم ذكر حديث الباب . وأخرجه أيضًا ابن حبان (موارد ٢٢٦٩) .

(٢) البخاري (حديث ٧٥٥) .

أنه لا يُحسن يُصلي فأرسل إليه فقال : يا أبا إسحاق إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي قال أبو إسحاق : أما أنا واللَّه فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول اللَّه ﷺ ما أخرم عنها ، أصلي صلاة العشاء فأركد في الأوليين وأخف في الأخريين قال : ذاك الظن بك يا أبا إسحاق ، فأرسل معه رجلاً - أو رجالاً - إلى الكوفة فسأل عنه أهل الكوفة ولم يدع مسجدًا إلا سأل عنه ويثنون معروفًا حتى دخل مسجدًا لبني عبس ، فقام رجل منهم يقال له أسامة ابن قتادة يكنى أبا سعدة قال : أما إذ نشدتنا فإن سعدًا كان لا يسير بالسرية ولا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في القضية . قال سعد : أما واللَّه لأدعون بثلاث : اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا قام رياء وسمعة ؛ فأطل عمره ، وأطل فقره ، وعرضه بالفتن ، وكان بعد إذا سئل يقول : شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد . قال عبد الملك : فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر وإنه ليتعرض للجواري في الطرق يغمزهن .

*** وذاك سعيد :**

● أخرج الإمام مسلم[1] رحمه اللَّه من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أروى بنت أويس ادعت على سعيد بن زيد أنه أخذ شيئًا من أرضها فخاصمته إلى مروان بن الحكم فقال سعيد : أنا كنت آخذ من أرضها شيئًا بعد الذي سمعت من رسول اللَّه ﷺ ؟ قال : وما سمعت من رسول اللَّه ﷺ ؟ قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **من أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا طوقه إلى سبع أرضين** » فقال له مروان : لا أسألك بينة بعد هذا . فقال : اللهم إن كانت كاذبة فعم بصرها واقتلها في أرضها قال : فما ماتت حتى ذهب بصرها ، ثم بينا هي تمشي في أرضها إذ وقعت في حفرة فماتت .

---

(٢) مسلم (ص١٢٣١) .

أدوية ومقويات عامة ومنظفات للقلب

وهاهي جرعات من الدواء ، من الدواء المركز الشافي بإذن اللَّه ولا شافي إلا اللَّه .

إنها أدوية مضمونة بإذن اللَّه

إنه علاج أكيد النفع بمشيئة اللَّه

هاهي جرعات من الدواء فتناولها وسم اللَّه

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠]

* * *

ذِكرُ اللَّه عز وجل

ومن أقوى الوسائل والأسباب لطمأنينة القلب وسكونه ذِكرُ اللَّه عز وجل.

قال اللَّه سبحانه : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ** ﴾ [الرعد: ٢٨، ٢٩]

وقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر: ٢٣]

● وقد وردت للعلماء عدة أقوال[(١)] في بيان المراد بذكر اللَّه عز وجل.

---

(١) **قال ابن القيم رحمه اللَّه « التفسير القيم »** :

قوله تعالى ذكره : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد: ٢٨]

الطمأنينة : سكون القلب إلى الشيء ، وعدم اضطرابه وقلقه . ومنه الأثر المعروف « **الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة** » أي: الصدق يطمئن إليه قلب السامع ، ويجد عنده سكونًا إليه . والكذب يوجب اضطرابًا وارتيابًا . ومنه قوله ﷺ : « **البر ما اطمأن إليه القلب** »[(١)] أي سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه .

وفي « ذكر اللَّه » ههنا قولان:

أحدهما : أنه ذكر العبد ربَّه ، فإنه يطمئن إليه قلبه ، ويسكن . فإذا اضطراب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر اللَّه .

ثم اختلف أصحاب هذا القول فيه. فمنهم من قال: هذا في الحلف واليمين ، إذا حلف=

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٤ ، ٢٢٨) والدارمي (٢/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦) .

. . . .

= المؤمن على شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه ، واطمأنت . ويروى هذا عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما.

ومنهم من قال : بل هو ذكر العبد ربه بينه وبينه ، يسكن إليه قلبه ، ويطمئن .

والقول الثاني : أن ذكر اللَّه ههنا القرآن ، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله ﷺ به طمأنينة قلوب المؤمنين . فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين . ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن . فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه ، واضطرابه وقلقه من شكه . والقرآن هو المحصل لليقين الدافع للشكوك والظنون والأوهام . فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به . وهذا القول هو المختار.

وكذلك القولان أيضًا في قوله تعالى : ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾ [الزخرف: ٣٦] والصحيح : أنه ذكره الذي أنزله على رسوله ﷺ ، وهو كتابه من أعرض عنه قيض اللَّه له شيطانًا يضله ويصده عن السبيل . وهو يحسب أنه على هدى .

وكذلك القولان أيضًا في قوله تعالى : ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ**﴾ [طه: ١٢٤] والصحيح : أنه ذكره الذي أنزله على رسوله ﷺ وهو كتابه .

ولهذا يقول المعرض عنه ﴿**قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ**﴾ [طه: ١٢٥ ، ١٢٦]

وأما تأويل من تأوله على الحلف ففي غاية البعد عن المقصود . فإن ذكر اللَّه بالحلف يجري على لسان الصادق والكاذب والبر والفاجر . والمؤمنون تطمئن قلوبهم إلى الصادق ولو لم يحلف . ولا تطمئن قلوبهم إلى من يرتابون منه ولو حلف .

وجعل اللَّه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم . وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة . فطوبى لهم وحسن مآب.

قال الرازي رحمه اللَّه في « التفسير الكبير » :

قوله تعالى : ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ**﴾ [الرعد: ٢٨ ، ٢٩]

اعلم أن قوله: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ بدل من قوله ﴿**من أناب**﴾ قال ابن عباس : يريد إذا =

● فقال فريق منهم: إن المراد بذكر اللَّه عز وجل هو القرآن ، واستدل هؤلاء بقول اللَّه تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

وبقوله تعالى : ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]

وقال سبحانه : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]

● وقال فريق آخر: إن المراد بذكر اللَّه عز وجل ذكر العبد ربَّه عز وجل بالتسبيح والحمد والتهليل والتكبير ، وذكر العبد ربَّه بينه وبينه عزَّ وجل.

● وقال آخرون : إن المراد بذكر اللَّه الحلف أي اليمين؛ فالمؤمن إذا حلف له خصمه باللَّه عز وجل سكن قلبه .

= سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت.

فإن قيل : أليس أنه تعالى قال في سورة الأنفال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] والوجل ضد الاطمئنان ، فكيف وصفهم ههنا بالاطمئنان؟

والجواب من وجوه : الأول : أنهم إذا ذكروا العقوبات ولم يأمنوا من أن يقدموا على المعاصي فهناك وصفهم بالوجل ، وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة ، سكنت قلوبهم إلى ذلك ، وأحد الأمرين لا ينافي الآخر ، لأن الوجل هو بذكر العقاب والطمأنينة بذكر الثواب، ويوجد الوجل في حال فكرهم في المعاصي ، وتوجد الطمأنينة عند اشتغالهم بالطاعات . **الثاني** : أن المراد أن علمهم بكون القرآن معجزًا يوجب حصول الطمأنينة لهم في كون محمد ﷺ نبيًا حقًّا من عند اللَّه . أما شكهم في أنهم أتوا بالطاعات على سبيل التمام والكمال فيوجب حصول الوجل في قلوبهم ، **الثالث** : أنه حصلت في قلوبهم الطمأنينة في أن اللَّه تعالى صادق في وعده ووعيده ، وأن محمدًا ﷺ صادق في كل ما أخبر عنه ، إلا أنه حصل الوجل والخوف في قلوبهم أنهم هل أتوا بالطاعة الموجبة للثواب أم لا؟ ، وهل احترزوا عن المعصية الموجبة للعقاب أم لا ؟.

وثمَّ أقوال أُخر .

ولا شك أن القرآن ذكرٌ للَّه عز وجل ، والحمد والتسبيح والتهليل والتكبير والاستغفار ذكرٌ للَّه عز وجل ، وكذلك اليمين باللَّه فيه ذكرٌ للَّه عز وجل .

ولا شك أيضًا أن الأنفس والقلوب تطمئن بتلاوة القرآن ، ويُطمئنها أيضًا الحمد والتسبيح والتهليل والتمجيد والتكبير للَّه والاستغفار، وكذلك فالمؤمن يطمئن إذا شك في مؤمنٍ وحلف له المؤمن يمينًا باللَّه عز وجل .

● فالقول بالعموم أولى ، وذكر اللَّه عام والنفس تطمئن دائمًا به وتسكن على الدوام إليه .

فليكثر العبد من التسبيح والتهليل والحمد والتكبير والتمجيد وسائر أنواع الذكر في طرقه وعلى فرشه وفي عموم مجالسه ، وكذلك فليكثر من تلاوة القرآن وتدبره حتى يطمئن قلبه ؛ فالسكينة تتنزل للقرآن ، والذاكرون تتنزل عليهم السكينة وتغشاهم الرحمة وتحفهم الملائكة كما ورد عن النبي ﷺ ففي « الصحيحين »[١] من حديث البراء بن عازب رضي اللَّه عنهما قال: قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة فجعلت تنفر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته قال : فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « **اقرأ فلان فإنها السكينة تنزلت عند القرآن أو تنزلت للقرآن** » .

● وفي « صحيح مسلم »[٢] من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال :

---

(١) مسلم مع النووي (٦/ ٨٢) واللفظ له ، والبخاري مع « الفتح » (٩/ ٥٧) .
(٢) مسلم مع النووي (١٧/ ٢١) .

قال رسول اللَّه : « من نفس عن مؤمن كربةً من كرب الدنيا نفس اللَّه عنه كربة من كرب يوم القيامة ... » الحديث وفيه : « وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بُيوت اللَّه يتلون كتاب اللَّه ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم اللَّه فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

فذكرُ اللَّه يُطمئن القلب ويأنس به العبد ، وكتاب اللَّه كذلك يأنس به العبد من الوحشة ، ويستنير به من الظلمة ، ويسكن إليه القلب ، ويهدأ من الاضطراب والقلق .

● وهذه بعض أقوال العلماء في تأويل قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]

قال الطبري رحمه اللَّه تعالى :

وقوله : ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ ، يقول : وتسكن قلوبهم وتستأنس بذكر اللَّه .

وأورد الطبري بإسنادٍ حسنٍ عن قتادة قال : قوله : ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ ، يقول : سكنت إلى ذكر اللَّه واستأنست به ، وقوله : ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ألا بذكر اللَّه تسكن وتستأنس قلوب المؤمنين .

وقال الحافظ ابن كثير رحمه اللَّه :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي : تطيب وتركن إلى جانب اللَّه وتسكن عند ذكره وترضى به مولًى ونصيرًا ، ولهذا قال : ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أي : هو حقيق بذلك.

وقال ابن الجوزي في « زاد المسير » :

في هذا الذكر قولان : **أحدهما** : أنه القرآن.

والثاني : ذكر اللَّه على الإطلاق ، وفي معنى هذه الطمأنينة قولان :

أحدهما : أنها الحب له والأُنس به .

والثاني : السكون إليه من غير شكٍّ بخلاف الذين إذا ذكر اللَّه اشمأزت قلوبهم .

* * *

والإيمان بالله والسمع والطاعة له سبحانه كل ذلك يُصلح القلب غاية الصلاح

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١]

وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]

وفي « صحيح مسلم »(١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء فقال النبي ﷺ: «**قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا**» قال : فألقى الله الإيمان في قلوبهم . . . الحديث.

فلما سلَّم الصحابة رضوان الله عليهم لأمر الله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا أُلقي الإيمان في قلوبهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء !!

* * *

---

(١) مسلم (حديث ١٢٦) .

والأدب مع حديث رسول اللَّه ﷺ وخفض الصوت عند سماعه والإنصات له

كل ذلك سبب في نقاء القلوب وصلاحها وصفائها ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٣]

وحرمة رسول اللَّه ميتًا كحرمته حيًّا ، ورفع الصوت فوق صوته بعد مماته كرفع الصوت فوق صوته في حياته ، فالذين يغضون أصواتهم عند سماع حديث رسول اللَّه ﷺ أولئك الذين أخلص اللَّه لهم قلوبهم ونقاها وصفاها كما قال سبحانه : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٣]

* * *

التأسي برسول اللَّه ﷺ والاقتداء بأهل العلم والفضل والخير والصلاح

فذلك يورث تقاربًا بين قلب الشخص وقلوب أهل الخير والفضل والعلم الصلاح وابتداءً فإن اللَّه أمرنا بالتأسي بنبيه ﷺ فقال اللَّه سبحانه : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]

وقال تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]

وقال سبحانه : ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥]

ونهى اللَّه عن التشبه بأهل الكفار وعن سلوك سبيلهم ، قال تعالى : ﴿فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]

فالاتفاق في الظاهر يجلب اتفاقًا في الباطن في الغالب، وكذلك فالاختلاف في الظاهر يجر إلى اختلاف القلوب ؛ ففي «الصحيح»(١) من حديث أبي مسعود قال : كان رسول اللَّه ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: «استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم» .

وفي « الصحيحين »(٢) من حديث النعمان بن بشير رضي اللَّه عنهما

---

(١) مسلم (حديث ٤٣٢) .

(٢) البخاري (حديث ٧١٧) ومسلم (٤٣٦).

قال : قال النبي ﷺ : « **لتســوون صفوفكــم أو ليخالفــن اللَّه بين وجوهكم**»[١].

ولذلك ترى مثلاً المتشابهين في زيِّهم ولباسهم وسمتهم أقرب إلى بعضهم البعض ، فترى من يلبس الثوب الأبيض يحن إلى من يلبس الثوب الأبيض ، ومن ترتدي النقاب تحن إلى من ترتدي النقاب إذا رأتها في طريق، وكذلك إذا كان شخصٌ ملتحيًا تجده يحن إذا وجد شخصًا ملتحيًا مثله ، ويقبل عليه وهكذا في غالب الأحوال ، **فمن تشبه برسول اللَّه ﷺ وبأهل الصلاح نجد قلبه متجهًا إليهم** ، وكذلك من تسمى وتشبه بأهل الشر والفساد.

● فحتى يسلم لك قلبك فليكن تشبهك برسول اللَّه ﷺ مادمت تستطيع ذلك في سمتك وفي لباسك وفي عبادتك وفي صبرك وحلمك وفي سائر أحوالك ؛ فإن ذلك يورثك تقاربًا من نبيك محمد ﷺ وتقاربًا من أهل الخير الصلاح والفضل والعفاف ، وما التوفيق إلا باللَّه .

* * *

(١) قال النووي رحمه اللَّه : قيل معناه يمسخها ويحولها عن صورها لقوله ﷺ : «**يجعل اللَّه صورته صورة حمار**» وقيل يغير صفاتها ، والأظهر ، واللَّه أعلم أن معناه : يوقع بينكم العداوة والبغضاء واختلاف القلوب.

النظر في أحاديث رسول اللَّه ﷺ التي تحدث في القلب رِقةً

● وهذه طائفة من الأحاديث أوردها العلماء في كتب الرقاق التي يفترض فيها أن تُحدث في القلب رقة لمن تدبرها وعقلها .

● عن عبد اللَّه بن عمر[١] رضي اللَّه عنهما قال : أخذ رسول اللَّه ﷺ بمنكبي فقال : « **كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** »، وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك .

● وعن أنس[٢] رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال : « **اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة** » .

● وعن ابن عباس[٣] رضي اللَّه عنهما قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «**لو كان لابن آدم واديان من مالٍ لابتغى ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب اللَّه على من تاب** » .

● وعن سهل بن سعد[٤] رضي اللَّه عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول:

---

(١) البخاري (حديث ٦٤١٣) .

(٢) البخاري (٦٤١٦) ومسلم (حديث ١٨٠٥) .

(٣) البخاري (حديث ٦٤٣٦) ومسلم (حديث ١٠٤٩) .

(٤) البخاري (حديث ٦٤١٥) ومسلم مختصراً (١٨٨١) .

« موضع سوط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ولغدوة في سبيل اللَّه أو روحة خير من الدنيا وما فيها » .

● وعن عمران بن حصين[١] رضي اللَّه عنهما عن النبي ﷺ قال : **«اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء »** .

● وعن أبي سعيد الخدري[٢] رضي اللَّه عنه أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول اللَّه ﷺ فلم يسأله أحد منهم إلا أعطاه حتى نفد ما عنده ، فقال لهم حين نفد كل شيء أنفق بيديه : **« ما يكون عندي من خيرٍ لا أدخره عنكم ، وإنه من يستعفَّ يُعفَّه اللَّه ، ومن يتصبر يُصبره اللَّه ، ومن يستغنِ يُغنه اللَّه ، ولن تُعطوا عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر»** .

● وعن أبي هريرة[٣] رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : **« لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا »** .

● وعن أبي هريرة[٤] رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال : **« أصدق بيتٍ قاله الشاعر : ألا كلُّ شيء ما خلا اللَّه باطل »** .

● وعن أبي سعيد الخدري[٥] رضي اللَّه عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : **« يأتي على الناس زمانٌ خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شعف**

---

(١) البخاري (حديث ٦٤٤٩) ومسلم (حديث ٢٧٣٨) .

(٢) البخاري (حديث ٦٤٧٠) ومسلم (حديث ١٠٥٣) .

(٣) البخاري (٦٤٨٥) .

(٤) البخاري (حديث ٦٤٨٩) .

(٥) البخاري (حديث ٦٤٩٥) .

الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » .

● وعن أنس رضي اللَّه عنه قال : كانت ناقة لرسول اللَّه ﷺ تسمى العضباء ، وكانت لا تُسبق ، فجاء أعرابي على قعودٍ له فسبقها فاشتد ذلك على المسلمين ، وقالوا : سبقت العضباء ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن حقًا على اللَّه أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه** »[(١)] .

● وعن أنس بن مالك[(٢)] رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «**يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى علمه** » .

● وعن عائشة[(٣)] رضي اللَّه عنها قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : «**تحشرون حفاة عراة غرلاً** » ، قالت عائشة رضي اللَّه عنها فقلت : يا رسول اللَّه ! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : « **الأمر أشدُّ من أن يهمهم ذاك** » .

● وعن عدي بن حاتم[(٤)] رضي اللَّه عنه قال : قال النبي ﷺ : « **اتقوا النار** » ثم أعرض وأشاح ثم قال : « **اتقوا النار** » ، ثم أعرض وأشاح ثلاثًا حتى ظننا أنه ينظر إليها ثم قال : « **اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة**» .

---

(١) البخاري (حديث ٦٥٠١) .

(٢) البخاري (حديث ٦٥١٤) ومسلم (حديث ٢٩٦٠) .

(٣) البخاري (حديث ٦٥٢٧) ومسلم (حديث ٢٨٥٩) .

(٤) البخاري (حديث ٦٥٤٠) ومسلم (حديث ١٠١٦) .

وفي رواية[١] : « ما منكم من أحد إلا وسيكلمه اللَّه يوم القيامة ليس بين اللَّه وبينه ترجمان ، ثم ينظر فلا يرى شيئًا قدامه ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق ثمرة » .

● وعن ابن عمر[٢] رضي اللَّه عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يُذبح ثم ينادي مناد : يا أهل الجنة لا موت يا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حُزنا إلى حزنهم » .

وعن أبي سعيد الخدري[٣] رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن اللَّه تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تُعط أحدًا من خلقك ، فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا».

● وعن أبي هريرة[٤] رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال : « ما بين منكبي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع » .

---

(١) البخاري (حديث ٦٥٣٩) وانظر مسلم (عقب حديث ١٠١٦) .
(٢) البخاري (حديث ٦٥٤٨) ومسلم (حديث ٢٨٥٠) .
(٣) البخاري (حديث ٦٥٤٩) ومسلم (حديث ٢٨٢٩) .
(٤) البخاري (حديث ٦٥٥١) ومسلم (حديث ٢٨٥٢) .

● وعن أنس[١] رضي اللَّه عنه قال : أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول اللَّه قد عرفت منزلة حارثة من فإن يك في الجنة أصبر وأحتسب وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع ، فقال : **«ويحك ، أو هبلتِ ـ أو جنة واحدة هي ؟! إنها جنان كثيرة ، وإنه لفي جنة الفردوس »** .

* * *

---

(١) البخاري (حديث ٦٥٥٠) .

الإيمـــان بالقـــدر
والرضا بالقضاء

ومن أعظم أسباب طمأنينة القلب وهدوئه وراحته الإيمان بالقدر.

● كما قال اللَّه تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]

وكما قال سبحانه : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

[الحديد: ٢٢، ٢٣]

● فالرجل يكون في أهله يحبهم ويحبونه ويأنس بهم ويأنسون به ، ويدخل كل يومٍ على أولاده بالابتسامات ويتلقونه بالترحيب ، ويحمل إليهم ما لذ وطاب من الطعام والشراب ، وذات يومٍ وهم ينتظرونه يتأخر ولا يأتيهم، بل يأتيهم خبره ، وأنه قد مات في حادث ، فماذا عساهم أن يصنعوا؟! لا شك أنهم إذا كانوا مؤمنين باللَّه وبأقداره وقضائه استرجعوا فقالوا: إنا للَّه وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنا في مصيبتنا ، واخلف لنا خيراً منها ، فيبدلهم اللَّه خيرًا منها ، ويرزقهم إيمانًا يجدون حلاوته في قلوبهم وطمأنينة وسكينة تباشر قلوبهم أيضًا ، وفضلاً عن ذلك فعليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون .

● أما إذا لم يكونوا مؤمنين فماذا عساهم أن يفعلوا ؟ امرأته تشق الجيب، وتلطم الخد ، وتحلق الرأس ، وتعترض على الأقدار ، وتسب

الأيام والشهور والليالي ، وتصيح صياح المجانين ، بل ويكون المجنون أفضل منها في حالتها تلك ، فالمجنون مرفوع عنه التكليف ، أما هي فتقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب كما جاء عن رسول اللَّه ﷺ في شأن النائحة[١] ، وقد تبرأ رسول اللَّه ﷺ من الصالقة والحالقة والشاقة[٢] .

● وماذا عساها أن تجني بعد ذلك ؟ ، إنها تجني ثمار اعتراضها على القدر: حسرات إلى حسرات ، وخساراً إلى خسارٍ ، يتسرب إليها الندم الذي لا ينفع بشيء فتقول : يا ليته ما خرج من بيته فتقع فيما يقع فيه الكفار الذين نهانا اللَّه عن التشبه بهم حيث قال سبحانه : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** [آل عمران: ١٥٦]

● فنهى اللَّه سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عن التشبه بالكفار .

عن التشبه بالكفار في ماذا؟

عن التشبه بالكفار في قيلهم ـ في شأن إخوانهم الذين سافروا فماتوا أو خرجوا في الغزو فماتوا ـ : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ؛ فهذا حال

---

(١) أخرج مسلم (٩٣٤) ، من حديث أبي مالك الأشعري رضي اللَّه عنه .

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٦) ، ومسلم (حديث ١٠٤) ، من حديث أبي موسى رضي اللَّه عنه مرفوعًا أن النبي ﷺ قال : **« أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة »** ، وقال : **« النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ، ودرع من جرب »** .

الكافر إذا مات أخوه أو مات قريبه أو صديقه في سفرٍ أو في غزوٍ يقول: لو كان عندنا ما مات وما قتل !!

ياليته ما خرج!! ليته ما سافر !!

ليته ما خرج في هذه الغزوة !!

لو أنه جلس ما أصابه الذي أصابه !!

فيحل الندم وتحل الحسرات في القلوب ، وهذا نوعٌ من أنواع العذاب ينزله اللَّه بأهل الكفر الذين لا يعرفون اللَّه ، ولا يؤمنون بأقداره فنهى اللَّه المؤمنين عن التشبه بالكفار في هذه التصرفات الحمقاء وفي هذا الندم القاتل، وفي غيره كذلك .

فلا تكونوا يا أهل الإيمان كأهل الكفر في هذا فتتنزل عليكم الحسرات وتحل في قلوبكم ، ولكن كونوا كمن قال اللَّه فيهم : ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧]

قولوا : إنا للَّه وإنا إليه راجعون اللهم أجرنا في مصيبتنا واخلف لنا خيرًا منها .

بهذا تسكن القلوب وتهدأ وتسترخي الأعصاب وترتاح ويتنزل الإيمان وتحل السكينة وترفع الدرجات .

ثم بيَّن اللَّه لأهل الإيمان أنه سبحانه هو الذي يحيي وهو الذي يميت، وهو عليم بما نقول ، بصير بما نعمل.

● والطالب يكون في دراسته مجتهدًا غاية الاجتهاد ذكيًّا في غاية من

الذكاء ، وكل عام ينجح وينجح بتفوق على أقرانه ، ويأتي في امتحان الثانوية مثلاً ـ التي بعدها يتجه إلى جامعة من الجامعات ـ يخرج من بيته صباحًا للامتحان ، فيسقط من على الدرج فتكسر رجله ، أو يهشم رأسه ، أو تصدمه سيارة فيذهب إلى المستشفى والآلام تحيط به من كل جانب والدم ينزف منه من كل مكان ، يعالج ويتألم وزملاؤه في الامتحان يؤدونه بهدوء أعصاب وراحة بال ، فماذا عساه أن يفعل إذا لم يكن مؤمنًا بأقدار اللَّه ؟!!

لا شك أنه إذا كان مؤمنًا باللَّه وبأقداره رضي وحمد اللَّه على كل حال، وعلم أن هذا ابتلاء من اللَّه ، وأن اللَّه عز وجل يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب ، فكان أمله ورجاؤه فيما عند اللَّه ، واحتسب كل ما أصابه في نفسه وبدنه ودنياه ، فحينئذٍ يبدله اللَّه إيمانًا يجد حلاوته في قلبه .

• والمرأة أو الفتاة تكون جميلة حسناء يتحدث أهل البلدة عن حسنها وجمالها وبهائها ؛ فما تلبث إلاَّ قليلاً حتى تبتلى ، تذهب لطهى طعام فيتناثر زيت حارٌّ على وجهها وجسمها فيشوهها ويفرُّ الناس منها عند رؤيتها ، فكيف تصنع مثل هذه إذا لم تكن تؤمن باللَّه وبأقداره وترضى بقضائه؟!!

• وهذا تاجر ثريٌّ يربح أموالاً طائلة ، وذات يوم ركدت التجارة وانخفض السعر ؛ فخسر خسارة فادحة ذهبت بأول أمواله وآخرها ، فماذا عساه أن يصنع؟!!

فقلب المؤمن بالقدر دائمًا مطمئنٌ وهادئٌ وصابرٌ وراضٍ وشاكر كما قال رسول اللَّه ﷺ : « **عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كلَّه خير ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء**

صبر فكان خيرًا له »[(١)] .

● يعلم المؤمن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[(٢)] فيطمئن قلبه !!

● يعلم أن الأمور مقدرةٌ عليه قبل أن يخلق فيطمئن قلبه[(٣)] !!

● يعلم أن الآجال مقدرة كما قال اللَّه تعالى : ﴿**قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٥٤] فيطمئن قلبه!!

● يعلم أن اللَّه هو الذي يُسلط وهو الذي يصرف السوء ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ**﴾ [النساء: ٩٠]

وكما قال تعالى : ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ**﴾ [الفتح: ٢٤]

وكما قال سبحانه : ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ**﴾ [يوسف: ٣٤]

يعلم ذلك وغيره فيطمئن قلبه .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي اللَّه عنه مرفوعًا .

(٢) أخرج أبو داود من حديث أُبي بن كعب رضي اللَّه عنه أنه قال لابن الديلمي : . . ولو أنفقت مثل أُحد ذهبًا في سبيل اللَّه ما قبله اللَّه منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك . . . » قال ابن الديلمي: ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك .

أخرجه أبو داود (حديث ٤٦٩٩) بإسناد حسن.

(٣) أخرج مسلم (٢٦٥٥) من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما عن النبي ﷺ : « **كتب اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة** » .

● يعلم أن الإنجاب والعقم من اللَّه كما قال سبحانه : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] فيطمئن قلبه .

● يعلم أن اللَّه يعز من يشاء ويُذل من يشاء كما قال سبحانه :﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]

● ويعلم قوله تعالى : ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨] فيطمئن قلبه !!

● يعلم أن النصر من عند اللَّه كما قال تعالى : ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] فيطمئن قلبه !!

● يعلم أن منتهى الأمور إليه سبحانه وخزائن كل شيء بيديه ؛ فيطمئن الشخص ويهدأ ولا يتشعب عليه فكره ولا يتشتت عليه قلبه . فيبتغي عند اللَّه الرزق ، ويطلب من اللَّه الفضل ويسأل اللَّه الشفاء ويتعوَّذ به من الشقاء!!

فيا له من قلب سعيدٍ مطمئنٍ ، قلب موقن هادئ قلب قد عرف طريق العلاج فسكن وعرف طريق السعادة فسلكها فاطمأن .

* * *

النظر إلى ما ابتلي به الأولون

● وإذا نظر الشخص إلى سنن اللَّه في خلقه وفي أهل الصلاح منهم ، ونظر في الابتلاءات التي تعرض لها الأولون من أهل الفضل هانت عليه مصائبه واطمأن قلبه ، فتسلي النفس وتعزيها بما يحدث لأمثالها يجعل القلب يهدأ ويطمأن ويسكن ، ومن ثمَّ أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يصبر كما صبر من كان قبله فقال سبحانه : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾
[الأحقاف: ٣٥]

● وذكر اللَّه لنبيه الكريم في كتابه قصص الأولين ليتعزى فيها وليتسلى بها .

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾
[الأنعام: ٣٤]

وقال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾
[العنكبوت: ٢، ٣]

وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]

وقال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾
[هود: ١٢٠]

وقال تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]

• ومقالة الخنساء مشهورة وهي تبكي على أخيها صخر فتقول :

ولولا كثرة الباكيـن حـولي على إخوانهم لقتلت نفسي
ولا يبكون مثـل أخي ولكن أعزي النفس معهم بالتأسي

وإذا علم المؤمن أن أهل الإيمان أشد الناس بلاد صبر على ما حل به من بلاء ، إذ هو يعلم أن مع العسر يسرًا ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب .

• أخرج الترمذي(١) بإسناد صحيح لغيره من حديث سعد بن أبي وقاص رضي اللّه عنه قال : قلت : يا رسول اللّه أي الناس أشد بلاء ؟ قال : **«الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة »** .

• وأخرج ابن ماجة بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال : دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف فقلت : يا رسول اللّه ما أشدها عليك قال : « **إنا كذلك يضعَّف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر** » قلت : يا رسول اللّه أي الناس أشد بلاء قال : « **الأنبياء** » قلت : يا رسول اللّه ! ثم من ؟ قال : « **ثم الصالحون إن كان أحدهم ليبتلـى بالفقـر حتى ما يجد أحدهم إلا العبـاءة**

(١) الترمذي (حديث ٢٣٩٨) وقال : هذا حديث حسن صحيح .
(٢) ابن ماجة (٤٠٢٤) .

يحويها ، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء » .

● وفي مسند الإمام أحمد[١] بإسناد صحيح من حديث محمود بن لبيد أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **إن اللَّه عز وجل ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم من الطعام والشراب تخافونه عليه**»، وفي رواية: «**إن اللَّه عز وجل إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع**» .

● وأخرج الترمذي[٢] بإسناد حسن من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى اللَّه وما عليه خطيئة** » .

*** وهذه بعض صور الابتلاءات التي ابتلي بها من كان قبلنا :**

● أخرج البخاري[٣] من حديث خباب بن الأرت ، قال : شكونا إلى رسول اللَّه ، ـ وهو مُتوسد بُردة له في ظل الكعبة ـ قلنا له : ألا تستنصر لنا، ألا تدعو اللَّه لنا ؟ قال : « **كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالميشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديث ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه ، واللَّه ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللَّه أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون** » .

---

(١) « المسند » (٥/٤٢٧) .

(٢) الترمذي (٢٣٩٩) .

(٣) البخاري (حديث ٣٦١٢) .

● وأخرج الإمام أحمد[١] رحمه اللَّه من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لما كانت الليلة التي أسري بي فيها ، أتت علي رائحة طيبة ، فقلت : يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة ؟ فقال : هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها ، قال : قلت : وما شأنها ؟ قال : بينا هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم إذ سقطت المدرى من يديها ، فقالت : بسم اللَّه ، فقالت لها ابنة فرعون ؟ أبي ؟! قالت : لا ، ولكن ربي ورب أبيك اللَّه . قالت : أخبره بذلك؟ قالت : نعم ، فأخبرته ، فدعاها ، فقال : يا فلانة ، وإن لك ربًّا غيري ؟ قالت : نعم، ربي وربك اللَّه ، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ، ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها فيها . قالت له : إن لي إليك حاجة . قال : وما حاجتك ؟ قالت : أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا. قال : ذلك لك علينا من الحق ، قال: فأمر بأولادها فألقوا بين يديها واحدًا واحدًا إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مرضع ، وكأنها تقاعست من أجله . قال : يا أمه ، اقتحمي فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فاقتحمت** » .

* **وهذا ابتلاء ابتلى به نبي اللَّه أيوب عليه السلام** ، ولكنه كان من الصابرين كما قال تعالى : ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤]

أخرج ابن حبان[٢] بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **إن أيوب نبي اللَّه لبث في بلائه ثماني عشرة سنة** ،

---

(١) أحمد (١/ ٣٠٩) وإسناده صحيح لغيره .

(٢) « موارد الظمآن» (٢٠٩١) .

فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين . فقال له صاحبه : وما ذاك ؟! قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به . فلما راح إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب : لا أدري ما تقول غير أن الله يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله وأرجع بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق . قال : وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها ، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص: ٤٢] فاستبطأته فبلغته ، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء فهو أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ؟ والله على ذلك ما رأيت أحدًا كان أشبه به منك إذ كان صحيحًا . قال : إني أنا هو وكان له أبدران(١) : أبدر القمح وأبدر الشعير ، فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما عل أبدر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاضت ، وأفرغت الأخرى على أبدر الشعير الورق حتى فاضت » .

* وابتلوا أيضا بالإخراج من بيوتهم :

قال الله وجل : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: ٤٠]

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ

---

(١) في رواية « أندران » بالنون ، وهو بمعنى الوعاء .

في ملتنا ﴾ [إبراهيم: ١٣]

• وأخرج الإمام أحمد[1] بإسناد صحيح عن عبد اللَّه بن عدي بن الحمراء أنه سمع النبي ﷺ وهو واقف بالحزورة في سوق مكة : « **واللَّه إنك لخير أرض اللَّه ، وأحب أرضِ اللَّه إلى اللَّه عز وجل ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت** » .

*** كانوا يتهمون وهم بُرآء :**

وإذا علم المؤمن أن أهل الصلاح اتهموا ، بل وقُذفوا ، فاتهم المؤمن تعزى بأهل الصلاح في صبرهم واطمأن قلبه إلى أن اللَّه سينجيه كما أنجاهم.

• اتهم يوسف ﷺ وقالت امرأة العزيز لزوجها في شأن يوسف : ﴿ **مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [يوسف: ٢٥]

ثم برأه اللَّه على لسانها بقولها بعد ذلك : ﴿ **الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** ﴾ [يوسف: ٥١، ٥٢]

• اتهمت مريم عليها السلام، وقالوا لها : ﴿ **يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا** ﴾

[مريم: ٢٧، ٢٨]

فبرأها اللَّه على لسان الطفل الرضيع، ونطق عيسى عليه السلام في

---

(١) أحمد في « المسند » (٤/ ٣٠٥) .

المهد قائلاً : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٣]

● اتهمت أم المؤمنين التقية الصالحة عائشة رضي اللَّه عنها بما رماها به أهل الإفك فنزلت فيها آيات تتلى في الصلوات وخارج الصلوات : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ.... ﴾ الآيات [النور: ١١ - ١٨]

● اتهم موسى ﷺ وآذاه قومه فبرأه اللَّه مما قالوا وكان عند اللَّه وجيهًا ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩]

وهاهي القصة بذلك ، أخرجها البخاري[(١)] في « صحيحه » من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن موسى كان رجلاً حييًّا ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما بستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده : إما برص وإما أدرة ، وإما آفة . وإن اللَّه أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه عريانًا أحسن ما خلق اللَّه وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضربًا بعصاه ، فواللَّه إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو**

---

(١) البخاري (حديث ٣٤٠٤) .

أربعًا أو خمسًا ، فذلك قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]».

● وها هي الجارية التي اتهمت بالسرقة ، سرقة وشاح ـ ففتشوها ، فتشوا كل شيء معها حتى فتشوا قُبلها « أي فرجها » ثـم كان ماذا ؟ ، كانت البراءة والنجاة من عند اللَّه سبحانه وتعالى كـان الفَـرَج ، وهذه قصتها .

أخرج البخاري[1] من حديث أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها أن وليدة كانت سوداء لحي من العرب فأعتقوها فكانت معهم . قالت : فخرجت صبية لهم عليها وشاح أحمر من سيور . قالت : فوضعته ـ أو وقع منها ـ فمرت به حدياة وهو ملقى ، فحسبته لحمًا فخطفته . قالت : فالتمسوه فلم يجدوه . قالت فاتهموني به . قالت : فطفقوا يفتشون حتى فتشوا قبلها . قالت : واللَّه إني لقائمة معهم إذ مرت الحدياة فألقته ، قالت: فوقع بينهم ، قالت فقلت : هذا الذي اتهمتموني به زعمتم ، وأنا منه بريئة وهو ذا هو . قالت : فجاءت إلى رسول اللَّه ﷺ فأسلمت . قالت عائشة : فكان لها خباء في المسجد ، أو حفـش ، قالـت : فكانـت تأتيني فتحـدث عنـدي قالت : فلا تجلس عنـدي مجلسًـا إلا قـالت :

ويوم الوشاح من تعاجيب ربنا   ألا إنه من بلدة الكفر أنجاني

قالت عائشة : فقلت لها : ما شأنك لا تقعدين معي مقعدًا إلا قلت هذا؟ قالت : فحدثتني بهذا الحديث .

---

(١) البخاري (حديث ٤٣٩) .

● اتُهم جريج العابد فبرأه اللَّه ، وأنطق اللَّه الطفل في المهد تبرئة لجريج .

أخرج البخاري ومسلم[(١)] من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج . وكان جريج رجلاً عابدًا . فاتخذ صومعة . فكان فيها . فأتته أمه وهو يصلي فقالت : يا جريج ! فقال : يا رب ! أمي وصلاتي . فأقبل على صلاته ، فانصرفت. فلما كان من الغد أتته وهو يصلي . فقالت : يا جريج ! فقال : يا رب ! أمي وصلاتي . فأقبل على صلاته . فانصرفت . فلما كان من الغد أتته وهو يصلي . فقالت : يا جريج ! فقال : أي رب ! أمي وصلاتي ، فأقبل على صلاته . فقالت : اللهم ! لا تمته حتى ينظر إلى وجوه الموسات . فتذاكر بنو إسرائيل جريجًا وعبادته . وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها[(٢)] . فقالت : إن شئتم لأفتننه لكم . قال: فتعرضت له فلم يلتفت إليها . فأتت راعيًا كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها . فوقع عليها . فحملت . فلما ولدت قالت : هو من جريج . فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه . فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : زنيت بهذه البغي . فولدت منك . فقال : أين الصبي ؟ فجاءوا به . فقال : دعوني حتى أصلي فصلى . فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه : وقال : يا غلام ! من أبوك ؟ قال : فلان الراعي . قال فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به . وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب . قال : لا ، أعيدوها من

---

(١) البخاري (حديث ٣٤٣٦) ومسلم (٢٥٥٠) .

(٢) « يتمثل بحسنها » أي يضرب به المثل لانفرادها به .

طين كما كانت ففعلوا .

وبينا صبي يرضع من أمه . فمر رجل راكبٌ على دابة فارهة[١] وشارة[٢] حسَنة . فقالت أمه : اللهم اجعل ابني مثل هذا . فترك الشدي وأقبل إليه فنظر إليه . فقال : اللهم ! لا تجعلني مثله . ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع » .

قال : فكأني أنظر إلى رسول اللَّه ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه . فجعل يمضها .

قال : « ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون : زنيت . سرقت . وهي تقول : حسبي اللَّه ونعم الوكيل . فقالت أمه : اللهم ! لا تجعل ابني مثلها . فترك الرضاع ونظر إليها . فقال : اللهم اجعلني مثلها فهناك تراجعا الحديث[٣] فقالت : حلقى ! مر رجل حسن الهيئة فقلت : اللهم ! اجعل ابني مثله فقلت : اللهم لا تجعلني مثله . ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون : زنيت . سرقت . فقلت: اللهم ! لا تجعل ابني مثلها . فقلت : اللهم ! اجعلني مثلها .

قال : إن ذاك الرجل كان جباراً . فقلت : اللهم ! لا تجعلني مثله . وإن هذه يقولون لها : زنيت ولم تزن . وسرقت . ولم تسرق . فقلت : اللهم ! اجعلني مثلها ».

---

(١) « فارهة » الفارهة النشيطة الحادّة القوية . وقد فرَهت فراهة وفراهية .

(٢) « وشارة » الشارة الهيئة واللباس .

(٣) أي : تحدثت مع ولدها .

● لُمز النبي ﷺ من أهل النفاق ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ . [التوبة: ٥٨]

قالوا عنه : إنه يجامل فيها وفي توزيعها ولا يحسن التصرف فيها ، بل ويأخذ منها لنفسه هذه مقولات أهل النفاق في شأن أفضل ولد آدم وسيد ولد آدم وخير ولد آدم ﷺ !!

● ولم يقف لمز أهل النفاق لرسول اللَّه ﷺ بل لمزوا أيضًا المطوعين من المؤمنين كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]

● فإذا علم العبد ذلك كله اطمأن قلبه ، اطمأن إلى وعد اللَّه سبحانه الذي لا يخلف ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]

وقوله : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]

وقوله تعالى : ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦]

* * *

الاستغفار

ومن خير الأدوية التي يتداوى بها العبد لإصلاح قلبه ، وأنفعها وأفضلها الاستغفار .

إنه دواء نافع ومزيل قوى للذنوب ، قوي جدًّا ونافع للقلب غاية النفع فليس هناك أضر على القلب من الذنوب والمعاصي ، فكل ذنب وكل معصية تترك أثرًا وسوادًا على القلب ، يحتاج هذا الأثر وهذا السواد إلى مزيل يزيله وإلى ماحٍ يمُحى به ، أولاً بأول حتى يبقى القلبُ نظيفًا على الدوام كما قال النبي ﷺ[1] « **إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، ذاك الرَّين الذي ذكر اللَّه عز وجل في القرآن : ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [المطففين: ١٤]» .

وأخرج الإمام مسلم[2] في «صحيحه» من حديث حذيفة رضي اللَّه عنه قال: كنا عند عمر . فقال : أيكم سمع رسول اللَّه ﷺ يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه . فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل[3] في أهله وجاره؟

---

(١) أحمد في « المسند » (٢/ ٢٩٧) بإسناد حسن من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

(٢) مسلم (حديث ١٤٤) .

(٣) **قال النووي** : «فتنة الرجل» قال أهل اللغة: أصل الفتنة في كلام العرب الابتلاء والامتحان والاختبار. قال القاضي: ثم صارت في عرف الكلام، لكل أمر كشفه الاختبار عن سوء. قال أبو زيد: فتن الرجل يفتن فتونًا: إذا وقع في الفتنة وتحول من حال حسنة إلى سيئة. وفتنة الرجل في أهله وماله وولده ضروب من فرط محبته لهم ، وشحه عليهم ، وشغله بهم عن كثير من الخير. كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾ [التغابن: ١٥]. أو =

قالوا : أجل . قال : تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة . ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر[١] ؟ قال حذيفة : فأسكت القوم[٢] فقلت : أنا قال : أنت ، للَّه أبوك[٣] ! قال حذيفة : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **تعرض الفتن[٤] على القوب كالحصير عودًا عودًا[٥] فأي قلب أشربها[٦] نكت فيه** ....

=لتفريطه بما يلزم من القيام بحقوقهم، وتأديبهم وتعليمهم، فإنه راع لهم ومسئول عن رعيته. وكذلك فتنة الرجل في جاره من هذا . فهذه كلها فتن تقتضي المحاسبة . ومنها ذنوب يرجى تكفيرها بالحسنات، كما قال تعالى : ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ [هود: ١١٤]

(١) « التي تموج موج البحر » أي : تضطرب ويدفع بعضها بعضًا . وشبّهها بموج البحر لشدة عظمها وكثرة شيوعها .

(٢) « فأسكت القوم » قال جمهور أهل اللغة : سكت وأسكت لغتان بمعنى صمت . وقال الأصمعيّ : سكت : صمت ، وأسكت : أطرق . وإنما سكت القوم لأنهم لم يكونوا يحفظون هذا النوع من الفتنة . وإنما حفظوا النوع الأول.

(٣) « للَّه أبوك » كلمة مدح تعتاد العرب الثناء بها . فإن الإضافة إلى العظيم تشريف . ولهذا يقال : بيت اللَّه وناقة اللَّه . قال صاحب « التحرير » : فإذا وُجد من الولد ما يحمد ، قيل له : للَّه أبوك حيث أتى بمثلك .

(٤) « تعرض الفتن » أي تلصق بعرض القلوب ، أي جانبها ، كما يلصق الحصير بجنب النائم ويؤثر فيه شدة التصاقها به .

(٥) « عودًا عودًا » قال النووي : هذان الحرفان مما اختلف في ضبطه على ثلاثة أوجه : أظهرها وأشهرها عُودا عودًا . والثاني : عَودًا عَودًا ، والثالث : عَوذًا عوذًا . ولم يذكر صاحب التحرير غير الأول . وأما القاضي عياض فذكر هذه الأوجه الثلاثة عن أئمتهم واختار الأول أيضًا.

(٦) « فأي قلب أشبرها » أي: دخلت فيه دخولاً تامًّا وألزمها وحلت منه محل الشراب . ومنه قوله تعالى : ﴿**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ**﴾ [البقرة: ٩٣] ، أي : حب العجل . ومنه قولهم : ثوب مشرب بحمرة ، أي : خالطته الحمرة مخالطة لا انفكاك لها .

نكتة[١] سواء . وأي قلب أنكرها[٢] نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا[٣] فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض. والآخر أسود مربادًّا[٤] كالكوز مجخيًا[٥] لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً . إلا ما أشرب من هواه» .

قال حذيفة : وحدثته ؛ أن بينك وبينها[٦] بابًا مغلقًا يوشك[٧] أن

---

(١) « نكت فيه نكتة » أي نقط نقطة . قال ابن دريد وغيره : كل نقطة في شيء بخلاف لونه فهو نكت.

(٢) « أنكرها » ردّها .

(٣) « مثل الصفا » قال القاضي عياض رحمه اللّه : ليس تشبيهه بالصفا بيانًا لبياضه . لكن صفة أخرى ، لشدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل . وأن الفتن لم تلصق به ولم تؤثر فيه . كالصفا وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء .

(٤) « مربادًّا » قال الإمام النووي رضي اللّه تعالى عنه : كذا هو في أصول روايتنا ، وأصول بلادنا . وهو منصوب على الحال . وذكر القاضي عياض خلافًا في ضبطه ، وإن منهم من ضبطه كما ذكرنا ، ومنهم من رواه : مربئد . قال القاضي : وهذه رواية أكثر شيوخنا. وأصله أن لا يهمز ، ويكون مربد مثل مسود ومحمر . وكذا ذكره أبو عبيد والهروي، وصححه بعض شيوخنا عن أبي مروان بن سراج لأنه من اربد ، إلا على لغة من قال : احمأرّ ، بهمزة بعد ميم لالتقاء الساكنين . فيقال : اربأد ومربئدّ . والدال مشددة على القولين، وسيأتي تفسيره .

(٥) « مجخيًا » معناه مائلاً . كذا قاله الهروي وغيره . وفسّره الراوي في الكتاب بقوله : منكوسًا وهو قريب من معنى المائل . قال القاضي عياض : قال لي ابن سراج : ليس قوله كالكوز مجخيًا تشبيهًا لما تقدم من سواده، بل هو وصف آخر من أوصافه ، بأنه قُلِب ونُكِس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة . ومثله بالكوز المجخّى ، وبيّنه بقوله : لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا.

(٦) « إن بينك وبينها » معناه : أن تلك الفتن لا يخرج شيء منها في حياتك .

(٧) « يوشك » أي : يقرب .

يكسر. قال عمر : أكسرًا[١] ، لا أبالك[٢] ! فلو أنه فتح لعله كان يعاد . قلت : لا . بل يكسر . وحدثته ؛ أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت . حديثًا ليس بالأغاليط[٣] .

* * *

(١) « أكسرًا » أي : أيكسر كسرًا . فإن المكسور لا يمكن إعادته بخلاف المفتوح ، ولأن الكسر لا يكون غالبًا إلا عن إكراه وغلبة وخلاف عادة.

(٢) « لا أبالك » قال صاحب « التحرير » : هذه كلمة تذكرها العرب للحث على الشيء ومعناها : أن الإنسان إذا كان له أب ، وحزبه أمر ، ووقع في شدة ، عاونه أبوه ورفع عنه بعض الكل ، فلا يحتاج من الجد والاهتمام إلى ما يحتاج إليه حالة الانفراد وعدم الأب المعاون . فإذا قيل : لا أبالك ، فمعناه : جدّ في هذا الأمر وشمّر وتأهب تأهب من ليس له معاون . واللَّه أعلم .

(٣) « ليس بالأغاليط » جمع أغلوطة ، وهي التي يغالط بها . فمعناه : حدثته حديثًا صدقًا محققًا ، ليس هو من صحف الكتابيين ، ولا من اجتهاد ذي الرأي ، بل من حديث النبي ﷺ .

والحاصل: أن الحائل بين الفتن والإسلام عمر رضي اللَّه عنه، وهو الباب . فما دام حيًّا لا تدخل الفتن . فإذا مات دخلت الفتن . وكذا كان . واللَّه أعلم . قاله النووي بتصرف.

مثلٌ حسن للقلوب السليمة الصافية وما بها من خيرٍ وصلاح وإيمان

وقد ضرب مثلٌ حسنٌ من كتاب اللَّه عز وجل لهذه القلوب في سورة النور ، ألا وهو قول اللَّه تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥]

والعلماء رحمهم اللَّه ، وأهل التفسير يتوسعون شيئًا ما في تفسير الأمثال حسب ما يتراءى لهم من المعاني ويظهر لهم من الحِكم ووجوه الاعتبار ، فأذكر هاهنا ـ بمشيئة اللَّه ـ مضمون كلام بعضهم مع بعض الإضافات إليه تجلية للمعاني وإظهاراً للفوائد وما توفيقي إلا باللَّه .

فقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥]

كقول النبي ﷺ : « **اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن** »[(١)] .

وقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ أي : مثل نوره في قلب المؤمن ﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا

---

(١) أخرجه البخاري مع « الفتح » (٣/٣) وكذلك حديث (٦٣١٧) وفي غير موضع من صحيحه ومسلم مع النووي (٦/ ٥٤) من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي اللَّه عنهما مرفوعًا.

مِصْبَاحٌ ﴾ والمشكاة هي الطاقة تكون في الغرفة فيها مصباح ﴿ **الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ** ﴾ أي : أن المصباح موضوع في زجاجة ، والزجاجة موضوعة في المشكاة التي هي الطاقة كي تشع الضوء للغرفة فشُبِّه قلب المؤمن بتلك الزجاجة التي حملت جملة مواصفات فهي أولا زجاجة مصباح ، وزجاج المصباح بالطبع زجاج رقيق .

وثانيًا : هي مع رقتها صلبة في غاية الصلابة وبيضاء ناصعة البياض إذ هي كالكوكب الدري .

وكذلك قلب المؤمن أبيض ناصع البياض صلب في غاية الصلابة فجمعت الزجاجة بين الرقة والبياض والصلابة .

وكذلك قلب المؤمن رقيق أبيض صلب .

رقيقٌ لأهل الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران : ١٥٩]

وكما قال تعالى : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح : ٢٩]

وكما قال تعالى : ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعراء : ٢١٥]

فقلب المؤمن رقيق لأهل الإيمان ، يتألم لألمهم ويتوجع لوجعهن ويحزن لحزنهم ، كما قال النبي ﷺ : « .. **وأهل الجنة ثلاثة .. ورجلٌ رحيمٌ رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم** »(١) .

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي اللَّه عنه .

• وفي الوقت نفسه فهو قلبٌ صلب في غاية الصلابة ، صَلبٌ في الحق والتمسك به ، صلبٌ في وجوه أعداء اللَّه ، كما قال تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ [الفتح: ٢٩]

وكما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التحريم: ٩]

وكما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة: ١٢٣]

• هذا هو قلب المؤمن رقيقٌ لأهل الإيمان شديد على المبطلين ، صلب في التمسك بالحق .

• وهو في الوقت نفسه قلب أبيض ناصع البياض كزجاجة المصباح، ومن المعلوم أن زجاجة المصباح يترسب عليها سواد يومًا بعد يومٍ ، وهذا السواد يحتاج إلى إزالة وإلى تنظيف ، ويظهر ذلك في مصباح الكيروسين الذي كان يستعمل قديمًا فكانت الأمهات يوميًّا ينظفن زجاج المصباح حتى يُشع أكبر قدرٍ من الضوء ، وحتى لا يحجب هذا السواد الإضاءة ويمنعها من الخروج إلى الغرفة ، فيومًا بعد يومٍ كان ينظف ، وإذا اشتد سواده يومًا لزم مسح هذا الزجاج ولابد ، وكما أسلفنا فقلب المؤمن شبِّه بهذه الزجاجة ـ زجاجة المصباح ـ وكما أسلفنا فالعبدُ يذنب ولابد ، والذنب يترك سوادًا على القلب وكذلك آثارًا ونكتًا كما جاء عن رسول اللَّه ﷺ : « **إذا أذنب العبد ذنبًا نكتت على قلبه نكتة سوداء**»[1] .

---

(١) تقدم .

وكما قال[١] النبي ﷺ : « **تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا فأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء** ...» الحديث .

فلابد أن تزال هذه الأوساخ التي ترسبت على القلب وتزال وإلا تراكمت عليه فأهلكته وأظلمته وأماتت الإيمان بداخله ، كما يحدث للضوء داخل الزجاجة السوداء المظلمة المغتمة .

ومزيلات هذه الأوساخ والقاذورات يكون بعون اللَّه ثم بالاستغفار «الدائم المستمر » ، ومن ثم قال النبي ﷺ : « **إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر اللَّه في اليوم مائة مرة** »[٢] .

وعلى ما تقدم فقد كان الصحابة يعدُّون لرسول اللَّه ﷺ في المجلس الواحد : « **رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور**» (مائة مرة)[٣] .

فإذا داوم العبد على الاستغفار وحافظ عليه ولزمه ورد المظالم إلى أهلها؛ أزيل أثر الذنوب الذي ترسب على القلب وأصبح القلب أبيض شفافًا صافيًا يخرج منه نور الإيمان إلى الصدر فيضيء الصدر ويتجه هذا النور إلى سائر الجوارح فتتحرك الجوارح في طاعة اللَّه ، فلا تبطش اليد إلا فيما أذن اللَّه لها بالبطش فيه، ولا تخطو الرجل إلا إلى حيث أمرها اللَّه ، ولا يتكلم اللسان إلا بما يُرضي اللَّه ، ولا تستمع الأذن إلا إلى ما يحبه اللَّه ، ولا تنظر

(١) أخرجه مسلم ، وقد تقدم .

(٢) مسلم (١٧/ ٢٣) مع النووي .

(٣) **صحيح** ، أخرجه أبو داود (١٥١٦) وعبد بن حميد في «المنتخب» بتحقيقي (٧٨٤).

العين إلى محارم اللَّه ، وكذلك الفؤاد تجده دائم الفكر في طاعة اللَّه وفيما يقرب العبد من اللَّه .

● هذا النور يشع ويخرج من الجسد إلى البيت فلا ترى في البيت شيئًا يغضب اللَّه ، ولا ترى فيه هذا الصخب وهذا الضجيج وهذا التمرد على اللَّه، بل ترى آثار الطاعات على البيت ، تسمع منه تلاوة القرآن ترى فيه آثار الوقار ، وأثر الفقه والطهارة ، ترى أهله ركعًا سجدًا خُشَّعًا ، لا يأكلون الحرام ولا يشهدون الزور ولا يخوضون مع الخائضين .

● هذا النور الذي شع من القلب وخرج إلى الجسد والصدر يُصاحب صاحبه أيضًا في القبر ، ويأتي أثره في صورة رجل أبيض الوجه حسن الثياب يقول لصاحبه إذا سأله : من أنت فوجهك الوجه يأتي بالخير ؟ فيقول له: أنا عملك الصالح .

● هذا النور وهذا الضياء يضيء لصاحبه وينير له الطريق ، يوم تقسم الأنوار يوم القيامة ، والناس في أحوج ما يكونون إلى هذه الأنوار ، تقسم الأنوار في الظلمات يوم القيامة للمرور على الصراط وللنجاة من سائر الكربات، يومها يقول المنافقون والمنافقات: ﴿**لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾ [الحديد: ١٣، ١٤]

فهذه الأنوار التي ملئت تلك القلوب في الدنيا تقود أصحابها يوم

القيامة إلى فسيح الجنان .

● وعلى العكس إذا ترسبت الذنوب على القلوب حُجب نور الإيمان وكاد أن يُطفئ بل طفئ فأصبح القلب مُظلمًا وأصبح الصدر مظلمًا وأصبحت الجوارح تتحرك في ظلام ، يدٌ تبطش خبط عشواء ، ورجل تمشي على غير هدى ولسان يتكلم ولا يكاد يبينه ، وأُذُن تستمع إلى ما يسخط اللَّه عليها وعلى صاحبها ، أما العين فتنظر إلى الحرام وبلا هوادة . .

● هذه قلوب أحاطت بها آثار الذنوب وغشيتها آثار المعاصي فتحركت جوارح أصحابها في سخط ومساقط ، وفي جهل وجهالاً .

● هذه الظلمات التي صاحبت هذه القلوب الآثمة التي لم يحرص أصحابها على تنقيتها بالاستغفار والتوبة والإنابة إلى اللَّه ورد المظالم إلى أهلها ، هذه الظلمات تصاحب صاحبها في بيته فتجد بيوتًا مظلمةً وإن كانت مشتغلة بأضواء الدنيا ، لكنها بيوت مُظلمة ، بيوتٌ ميتة ، بيوت علتها الظُّلم وغشيتها الحُجُب وأحدقت بها الشياطين .

● هذه الظلمات تصاحب أصحابها إلى قبورهم فتأتيهم في صورة ذلك الرجل أسود الوجه قذر الثياب يقول لصاحبه أنا عملك السيئ .

● هذه الظلمات تصاحب أصحابها عند خروجهم من القبور فيتحركون في ظلمات تطفأ عنهم الأنوار وهم في أمس الحاجة إليها ، تخطفهم الكلاليب عند مرورهم على الصراط فيتساقطون في النيران ، والعياذ باللَّه على قدر أعمالهم .

فهذا نتيجة الجرائم ، وهذه آثار النفاق ، وهذا من شؤم المعصية

والكفر والعياذ باللَّه .

• أما أهل الإيمان أصحاب القلوب البيضاء النقية الصافية ، فكما أسلفنا قادهم نورهم حتى دخلوا الجنان ، بل وفي الجنان عليهم النور كذلك والحسن والبهاء .

• ولنرجع مزيد بيان لحال قلوبهم في الدنيا .

إنها قلوب رقيقة صلبة بيضاء ، إنها بيضاء فخرج منها النور إلى سائر الصدر والجسد ، ترى ما هي مادة وقودها؟ ، إنها توقد بخير الوقود وخير الزيوت إنها توقد من شجرة مباركة زيتونة ، كذلك قلب المؤمن مادته ووقوده إيمان باللَّه وفطرة سليمة صحيحة مُزجت بعلم شرعي علمٍ بكتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ .

فكما أن زيت الزيتون من حسنه ونقائه وصفائه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، فكذلك القطرة السليمة والإيمان في قلب المؤمن يجعله يتكلم بالحكمة وينطق بالدليل من قبل أن يأتيه الدليل ومن قبل أن يعرف الآية والحديث .

فإذا مست النار زيت الزيتون أضاءت خير إضاءة وأنارت خير إنارة .

كذلك قلب المؤمن إذا صادفت الفطرة الصحيحة التي فيه والإيمان الذي به إذا صادفت هذه وذاك العلم الشرعي ـ العلم بالكتاب والعلم بالسنة أعطت خير إضاءة على الإطلاق وأنارت خير إنارة على الإطلاق ، فاجتمعت جملة أنوار ، نور الإيمان والفطرة الصحيحة مع نور الحق والدليل والبرهان من الكتاب والسنة، كل ذلك أضاء وخرج من زجاجة صافية بيضاء نقية فأعطى

خير إضاءة وأوضح غاية الإيضاح فكان ـ بعد ـ قائدًا لصاحبه إلى الجنة .

ولكن هذا النور وهذه الهداية كل ذلك من عند اللَّه ﴿ **يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ إنها هداية من اللَّه سبحانه وتعالى؛ فجدير بالعبد أن يسأل ربَّه إياها ، جدير بالعبد أن يلتمسها من اللَّه ويرجوها منه سبحانه جدير بالعبد أن يسأل ربه سلامة قلبه وصلاحه ونقائه وصفائه ، فهو سبحانه الوهاب .

فيا عبد اللَّه كيف بك إذا ارتديت ثوبًا أبيض جميلاً حسنًا ثم جاءت عليه بقعة سوداء ، هل تحب أن تبقى هذه البقعة عليه أم أنك تبادر بإزالتها وغسلها ومحوها ؟!!

قطعًا ستبادر بغسلها ومحوها وإزالتها ولا شك .

فلمَ ترضى أن يكون قلبك ـ القلب الأبيض قلب المؤمن ـ ملوثًا بالذنب ومُدنسًا بالمعصية؟!!

إن أمرك لعجيب حقًّا !!

أتدري من ينظر إلى قلبك ؟ ، إن الذي ينظر إلى قلبك هو اللَّه سبحانه وتعالى فلمَ لا تنظفَ قلبك حتى يراه اللَّه على خير حال ، لم لا تظهر أمام ربك بمظهر حسن قلبًا وقالبًا ؟!!

بادر يا عبد اللَّه بالاستغفار ـ بادر بالتوبة والإنابة والرجوع إلى اللَّه ، سل ربك أن يتوب عليك وأن يغسل عنك الخطايا بالماء والثلج والبرد .

أخي ـ إنها تذكرة فلا تُعرض عنها ، إنها موعظة فلا تنساها ألا وهي «**إن اللَّه لا ينظر إلى صوركم ولا أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» قال

ذلك النبي ﷺ، وفي بعض الروايات : « **التقوى هاهنا** » ويشير إلى صدره ثلاث مرات(١) .

● ونعتذر ، ونتوب إلى اللَّه ونستغفره إذا كنا قلنا شيئًا في كتابه غير مراده سبحانه وتعالى - فهو سبحانه وتعالى أعلم بمراده - ولكنا رأينا أهل العلم توسعوا في شرح الأمثال وجاءت عنهم في الباب عدة أقوال ؛ فتقلدنا قولاً نسأل اللَّه أن يكون موافقًا لعمومات الكتاب والسنة المطهرة ، فما كان في هذا القول من صواب فمن اللَّه سبحانه وتعالى فهو صاحب الفضل وله النعمة والثناء الحسن ، ومن كان فيه من خطأ فمن أنفسنا ومن الشيطان واللَّه ورسوله بريئان منه ونستغفر اللَّه من كل خطأ وذلك ، واللَّه الهادي إلى سواء السبيل ! !

لذلك يلزم العبد ويجدر به وينبغي له أن يجعل لنفسه وردًا يوميًّا من الاستغفار ويستغفر ربه صباحًا ومساء وآناء الليل وأطراف النهار وإن كان ثمَّ أوقات أفضل من أوقات ، كالاستغفار وقت السحر ودبر الصلوات وأثناء السجود وعقب الذنوب وفي ختام المجالس وعند انتهاء الأعمال وغير ذلك، وقد وردت نصوص الكتاب والسنة تحث على الاستغفار والإكثار منه ، وكان هذا الاستغفار شعارًا للأنبياء والصالحين منذ خلق اللَّه آدم إلى يوم الدين ، وهاهي بعض النصوص الواردة في الحث على الاستغفار وبيان أنه شأن أهل الصلاح .

● قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء : ١١٠]

---

(١) مسلم (حديث ٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه مرفوعًا .

وقال سبحانه : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]

وقال تعالى : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]

وفي الحديث القدسي[١] « **يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا ، فاستغفروني أغفر لكم** » .

وينادي اللَّه سبحانه وتعالى عباده في القلب الأخير من الليل فيقول: «**من يستغفرني فأغفر له** »[٢] .

• ولما قال الشيطان : بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم مادامت الأرواح فيهم ، فقال اللَّه : « **فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني**»[٣] .

• وكان الاستغفار للأنبياء وأهل الصلاح شعارًا من آدم إلى نبينا محمد عليهم الصلاة والسلام .

• قال آدم وزوجه عليهما السلام : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]

• ونوح ﷺ يقول : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن اللَّه تبارك وتعالى .

(٢) البخاري مع « الفتح » (١١/١٢٨) ومسلم (٦/٣٦) .

(٣) أحمد (٣/٢٩) .

وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨]

● ويقول الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]

● ويقول موسى ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]

● ويقول اللَّه سبحانه وتعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]

● وولده سليمان عليه يقول: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]

● ويونس ﷺ يُنادي في الظلمات: ﴿أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]

* * *

رد المظالم إلى أهلها

هذا الذي ذكر في الاستغفار يتعلق بالذنوب التي بين العبد وربِّه عز وجل، أما مظالم العباد فلزامًا على العبد أن يؤديها إليهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

قال النبي ﷺ : « **لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء** »[(١)] .

وها هو الشهيد يغفر له كل ذنب إلا الدَّين كما قال عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه مسلم من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي اللَّه عنه : « **يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّين** »[(٢)] .

وفي « صحيح مسلم »[(٣)] كذلك أن النبي ﷺ قال : « **أتدرون ما المفلس؟** » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : « **إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيُعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يُقض ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طُرِح في النار** » .

وللاستغفار فقهُ وألفاظ وصيغ وأوقات وآداب وفضائل ، أفردناها بفضل اللَّه في رسالة مستقلة ، وباللَّه التوفيق .

---

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٥٨٢) .

(٢) مسلم (حديث ١٨٨٦) .

(٣) مسلم (٢٥٨١) .

*** عيادة المرضى واتباع الجنائز وزيارة القبور والمسح على رءوس الأيتام :**

كل ذلك سبب في لين القلب ورقته .

وكل ذلك ينتفع به القلب ويصفو ويزهو .

* * *

إمساك الفضول

● سواء فضول القول أو فضول الفعل وفضول السمع والبصر ، وعموم أنواع الفضول ؛ فمن أقوى وسائل المحافظة على القلب : المحافظةُ على الجوارح وإمساك الفضول فاللسان واليد والعين والإذن بل والشم كذلك كلها تلقي بظلالها وآثارها على القلب إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر ، ولذلك جاءت نصوص الكتاب والسنة تحث على المحافظة على هذه الجوارح وتأمر بحفظها وإبعادها عن المحرم .

وقد بوَّب الإمام البخاري في كتاب الرقاق من « صحيحه » ، وكتاب الرقاق - كما هو معلوم من كتب الرقاق - يجمع الأحاديث التي تُحدث في القلب رقة بوَّب رحمه اللَّه باب حفظ اللسان ، ومن كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، وقوله تعالى : ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ [ق: ١٨] وأورد هذه الأحاديث بأسانيده.

● عن سهل بن سعد[١] عن رسول اللَّه ﷺ قال : « **من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة** » .

● وحديث أبي هريرة[٢] رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «**من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت** » .

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٤) .

(٢) البخاري (٦٤٧٥) ومسلم (حديث ٤٧) .

● وحديث أبي شريح(١) الخزاعي أيضًا عن رسول اللَّه ﷺ وفيه : «**ومن كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت**» .

● وحديث أبي هريرة(٢) رضي اللَّه عنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول : «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق** ».

● وحديث أبي هريرة(٣) أيضًا عن النبي ﷺ قال : « **إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان اللَّه لا يلقى لها بالاً يرفعه اللَّه بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط اللَّه لا يلقى لها بالاً يهوى بها في جهنم** » .

● هذا وقد أمر اللَّه سبحانه بحفظ السمع والبصر فقال سبحانه : ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٦]

وقال تعالى : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ . . .الآية** ﴾ [النور: ٣٠، ٣١]

وقد سئل النبي ﷺ عن نظر الفجأة فقال : « **اصرف بصرك** »(٤) .

فجديرٌ بالعبد وحريٌّ به أن يحفظ جوارحه من الوقوع في الحرام ، وإلا يسترسل في الخوص في المُحرم ، وأن يمسك عن الفضول .

---

(١) البخاري (٦٤٧٦) ومسلم (٤٨) .

(٢) البخاري(٦٤٧٧) ومسلم (حديث٢٩٨٨) وعنده: «..**أبعد ما بين المشرق والمغرب**».

(٣) البخاري (٦٤٧٨) .

(٤) بهذا اللفظ أخرجه أبو داود (٢١٤٨) ، وهو في مسلم من حديث جرير بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنه قال : سألت رسول اللَّه عن نظر الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري .

وهنا كلام قيم للعلامة ابــن القيــم رحمــه اللَّه ، وقد نقلنــاه في غير موضع مــن كتبنا ذكر رحمه اللَّه الحروز التي يحترز بها العبد من الشيطان ، فذكر منهــا : إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس .

وقال : فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة .

فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب ، والاشتغال به ، والفكرة في الظفر به .

فمبدأ الفتنة من فضول النظر ، كما في « المسند » عن النبي ﷺ أنه قال : « **النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، فمن غَضَّ بصره للَّه أورثه اللَّه حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه** » أو كما قال ﷺ .

فالحوادث العظام إنما هي كلها من فضول النظر . فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة ؟ كما قال الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر؟

وقال الآخر :

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يومــًا أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كُلَّه أنت قادر عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

وقال المتنبي :

وأنا الذي جلب المنية طرفه فمن المطالب ، والقتيل القاتل؟

ولي من أبيات[(١)] :

يا راميًا بسهام اللحظ مجتهدًا أنت القتيل بما ترمى، فلا تصب
وباعثَ الطرف يرتاد الشفاء له توقَّـــه ، إنـــه يرتـــد بالعطـــب
ترجو الشفاء بأحداق بها مرض فهل سمعت ببرء جاء من عطب؟
ومفنيًا نفسه في إثر أقبحهم وصفًا للطخ جمال فيه مستلب
وواهبًا عمره في مثل ذا سفها لو كنت تعرف قدر العمر لم تهب
وبائعًا طيب عيش ماله خطر بطيف عيش من الآلام منتهب
غبنت واللَّه غبنًا فاحشًا فلو اسـ ـترجعت ذا العقد لم تغبن ولم تخب
وواردًا صفو عيش كله كدر أمامك الورد صفوًا ليس بالكذب
وحاطب الليل في الظلماء منتصبًا لكل داهية تدني من العطب
شاب الصبا والتصابي بعد لم يشب وضاع وقتك بين اللهو واللعب
وشمس عمرك قد حان الغروب لها والضي في الأفق الشرقي لم يغب

---

(١) سبحان اللَّه ما أجمل هذه الأبيات وما أروعها جزى اللَّه قائلها خير الجزاء .

يا راميا بعين اللحظ مجتهدا أنت القتيل بما ترم فلا تصب

سبحان اللَّه ، فيا من وجهت سهام بصرك إلى المحرم ، يا من رأيت فتاة أو امرأة حسناء فركزت البصر وحددت النظر وصوبته إليها انتبه ، اتق اللَّه ، اصرف بصرك غض طرفك اعلم أن اللَّه يراك واعلم تمام العلم وأيقن تمام اليقين أنك إذا سددت النظرة إليها فإنك إنما تسدد سهمًا إلى قلبك فإذا أصابت نظرتك هدفها فقد أصاب سهم في قلبك ، فاتـق اللَّه ولا تهلك نفسك ، لا تدمر قلبك لا تركز البصر ، اصرفه ، استغفر لذنبك ، وإلا أُصبت ، أصبت في أعز ما تملك ، وفي أغلى ما تملك، أُصبت في قلبك ، عافاك اللَّه من كل مكروه وقبيح .

وفاز بالوصل من قد فاز وانقشعت عن أفقه ظلمات الليل والسحب
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت ورسل ربك قد وافتك في الطلب
ما في الديار وقد سارت ركائب من تهواه للصب من سكنى ولا أرب
فأفرش الخد ذياك التراب، وقل ماقاله صاحب الأشواق في الحقب
ما ربع مية محفوفًا يطوف به غيلان أشهى له من ربعك الخرب
ولا الخدود وإن أدمين من ضرج[1] أشهى إلى ناظري من خدك الترب
منازلا كان يهواها ويألفها أيام كان منال الوصل عن كثَب
فكلما جليت تلك الربوع له يهوي إليها هوي الماء في صبب
أحيا له الشوق تذكار العهود بها فلو دعا القلب للسلوان لم يجب
هذا وكم منزل في الأرض يألفه وماله في سواها الدهر من رغب
ما في الخيام أخو وجد يريحك إن بثثته بعض شأن الحب ، فاغترب
وأسر في غمرات الليل مهتديًا بنفحة الطيب لا بالنار والحطب
وعاد كل أخي جبن ومعجزة وحارب النفس لا تلقيك[2] في الحرب
وخذ لنفسك نورًا تستضيء به يوم اقتسام الورى الأنوار بالرتب
فالجسر ذو ظلمات ليس يقطعه إلا بنور ينجي العبد في الكرب

والمقصود : أن فضول النظر أصل البلاء .

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبوابًا من الشر كلها مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها . وكم من حرب

---

(١) في « القاموس » : تصرج الخد : احمار . فالضرة الأحمرار .

(٢) في «النهاية»: الحرب بالتحريك نهب مال الإنسان وتركه لاشيء له، والمعنى: حارب النفس لئلا تسلب الفضيلة أو رأس مالك وهو العمر. قاله المعلق على«التفسير القيم».

جرتها كلمة واحدة . وقد قال النبي ﷺ لمعاذ : « **وهل يُكِبُّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم** » وفي الترمذي : أن رجلاً من الأنصار تُوفِّي فقال بعض الصحابة : طوبى له . فقال النبي ﷺ : « **فما يدريك ؟ فلعله تكلم بما لا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقصه** » .

وأكثر المعاصي : إنما يولدها فضول الكلام والنظر . وهما أوسع مداخل الشيطان . فإن جارحتيهما لا يملان ، ولا يسأمان ، بخلاف شهوة الباطن . فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام .

وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام ، فجنايتهما متسعة الأطراف ، كثيرة الشعب ، عظيمة الآفات .

وكان السلف يحذرون من فضول النظر ، كما يحذرون من فضول الكلام ، كانوا يقولون : ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان .

وأما فضول الطعام : فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر ، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي ، ويثقلها عن الطاعات . وحسبك بهدين شرًّا . فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام ؟ وكم من طاعة حال دونها ؟

فمن وقي شر بطنه فقد وقي شرًّا عظيمًا .

والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام . ولهذا جاء في بعض الآثار : « ضيقوا مجارى الشيطان بالصوم » وقال النبي ﷺ : «**ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن** » .

ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر اللَّه عز وجل ، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان

ووعده ، ومَنَّاه وشهَّاه ، وهام به في كل واد . فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت ، وطافت على أبواب الشهوات ، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت .

وأما فضول المخالطة : فهي الداء العضال الجالب لكل شر . وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة . وكم زرعت من عداوة . وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات ، وهي في القلوب لا تزول ، ففي فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة . وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة .

ويجعل الناس فيها أربعة أقسام : متى خلط أحد الأقسام بالآخر ، ولم يميز بينهما دخل عليه الشر .

أحدهما : من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة . فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام . وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر ، وهم العلماء باللَّه وأمره ، ومكايد عدوه ، وأمراض القلوب وأدويتها الناصحون للَّه ولكتابه ولرسوله ولخلقه . فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كل الربح .

القسم الثاني : من مخالطته كالدواء ، يحتاج إليه عند المرض . فما دمت صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته ، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش ، وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من :

القسم الثالث : وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه

وقوته وضعفه .

فمنهم من مخالطته كالداء العضال ، والمرض المزمن ، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا . ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما . فهذا إذا تمكنت منك مخالطته واتصلت ، فهي مرض الموت المخوف.

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربه عليك ، فإذا فارقك سكن الألم .

ومنهم من مخالطته حمى الروح . وهو الثقيل البغيض العقل ، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها ، بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين ، مع إعجابه بكلامه وفرحه به . فهو يُحدِث من فيه كلما تحدث، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس . وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض . ويذكر عن الشافعي رحمه اللَّه أنه قال : ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر .

ورأيت يومًا عند شيخنا قدس اللَّه روحه رجلاً من هذا الضرب والشيخ يحمله ، وقد ضعفت القوى عن حمله ، فالتفت إليّ وقال : مجالسة الثقيل حمى الربع . ثم قال : لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى ، فصارت لها عادة . أو كما قال .

وبالجملة : فمخالطة كل مخالف حمى للروح ، فعرضية ولازمة . ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب . وليس له بد من

معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف ، حتى يجعل اللَّه له من أمره فرجًا ومخرجًا .

القسم الرابع : من مخالطته الهلك كله ومخالطته أكل السم . فإن اتفق لآكله ترياق ، وإلا فأحسن اللَّه فيه العزاء . وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثرهم اللَّه . وهم أهل البدع والضلالة ، الصادون عن سنة رسول اللَّه ، الداعون إلى خلافها ، الذين يصدون عن سبيل اللَّه ويبغونها عوجًا ، فيجعلون البدعة سنة ، والسنة بدعة ، والمعروف منكرًا ، والمنكر معروفًا .

إن جردت التوحيد بينهم قالوا : تنقصت جناب الأولياء والصالحين .

وإن جردت المتابعة لرسول اللَّه ﷺ قالوا : أهدرت الأئمة المتبوعين.

وإن وصفت اللَّه بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله من غير غلوّ ولا تقصير قالوا : أنت من المشبهين .

وإن أمرت بما أمر اللَّه به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى اللَّه عنه ورسوله من المنكر ، قالوا : أنت من المفتنين .

وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا : أنت من أهل البدع المضلين.

وإن انقطعت إلى اللَّه تعالى ، وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا ، قالوا: أنت من الملبسين .

وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم ، فأنت عند اللَّه من الخاسرين ، وعندهم من المنافقين .

فالحزم كل الحزم : التماس مرضاة اللّٰه تعالى ورسوله بإغضابهم ، وأن لا تشتغل بأعتابهم ، ولا باستعتابهم ، ولا تبالي بذمهم ولا بغضهم ، . فإنه عين كمالك كما قال :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهـي الشهادة لي بأني فاضـل

وقال آخر :

وقد زادني حبًّا لنفسي أنني بغيض إلى كل امرئ غير طائل

فمن أيقظ بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التي هي أصل بلاء العالم ، وهي فضول النظر ، والكلام ، والطعام ، والمخالطة . واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التي تحرزه من الشيطان . فقد أخذ بنصيبه من التوفيق . وسد على نفسه أبواب جهنم ، وفتح عليها أبواب الرحمة ، وانغمر ظاهره وباطنه . ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء . فعند الممات يحمد القوم التقي . وفي الصباح يحمد القوم السُّري. واللّٰه الموفق لا رب غيره ، ولا إله سواه .

* * *

ما يفعل إذا اضطرب القلب لرؤيا مزعجة

وكذلك إن رأى الشخص رؤيا أفزعته وأقلقته وسببت له الاضطراب والخوف والحيرة ، ففعل ما علَّمه إياه رسول اللَّه ﷺ من آداب الرؤيا ، من تعوذٍ باللَّه منها والفعل عن اليسار ثلاثًا وترك الحديث بها والتحول عن جانبه إلى الجانب الآخر والفزع إلى الصلاة فلا تضره هذه الرؤيا بإذن اللَّه ، وقد كان الصحابي من صحابة رسول اللَّه ﷺ يرى الرؤيا أثقل عليه من الجبال فلما تعلم من رسول اللَّه ﷺ هذه الآداب سُرِّي عنه ، وذهب عنه الذي كان يجد ، واطمأن قلبه وسكن فؤاده .

وها هي بعض الأحاديث بذلك .

أخرج البخاري ومسلم[1] من طريق أبي سلمة قال : كنت أرى الرؤيا أُعْرَى منها[2] غير أني لا أُزَمَّل[3] . حتى لقيت أبا قتادة . فذكرت ذلك له . فقال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **الرؤيا من اللَّه . والحلم من الشيطان . فإذا حلم أحدكم حلمًا يكرهه فلينفث عن يساره ثلاثًا . وليتعوذ باللَّه من شرها . فإنها لن تضره** » .

---

(١) البخاري (حديث ٧٠٤٤) ومسلم (٢٢٦١) .

(٢) « أعرى منها » أي : أحمّ لخوفي من ظاهرها ، في معرفتي . قال أهل اللغة : يقال عُرِي الرجل يُعرى إذا أصابه عُراء . وهو نفض الحمى . وقيل : رعدة .

(٣) « أزمّل » معناه أُغَطَّى وأُلفُّ كالمحموم .

وفي «صحيح مسلم»[١] من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه : عن النبي ﷺ قال : « **إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب . وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا . ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءًا من النبوة . والرؤيا ثلاثة : فرؤيا الصالحة بشرى من اللَّه. ورؤيا تحزين من الشيطان . ورؤيا مما يحدث المرء نفسه . فإن رأى أحدكم ما يكره ، فليقم فليصل . ولا يحدث بها الناس** » .

وفي «صحيح البخاري»[٢] من حديث أبي سعيد الخدزي رضي اللَّه عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إذا رأى أحدكم رؤيا يحبُّها فإنما هي من اللَّه ، فليحمد اللَّه عليها وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره** » .

وأخرج مسلم[٣] من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنهما قال : عن رسول اللَّه ﷺ أنَّه قال : « **إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثًا . وليستعذ باللَّه من الشيطان ثلاثًا . وليتحول عن جنبه الذي كان عليه**».

وإذا كان الشخص في مكان مُوحش وخاف شيئًا على نفسه من سباع أو هوام أو حشرات أو أذى أي شيء يؤذى واضطراب لذلك قلبه وحل به القلق ، فقال : أعوذ بكلمات اللَّه التامات من شر ما خلق لم يضره شيء كما جاء عن

---

(١) مسلم (حديث ٢٢٦٣) .

(٢) البخاري (٦٩٨٥) .

(٣) أخرجه مسلم (حديث ٢٢٦٢) .

رسول اللَّه ﷺ ، وينقطع القلق بإذن اللَّه ثم بهذا الذكر إن كان الرجل موقنًا بحديث رسول اللَّه ﷺ الذي قال فيه : « **من نزل منزلاً ثم قال : أعوذ بكلمات اللَّه التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك** »[(١)] .

* * *

(١) أخرجه مسلم مع النووي (١٧/ ٣١) من حديث خولة بنت حكيم السلمية رضي اللَّه عنها .

إذا رأى امرأة فأعجبتـــه واضطرب قلبه كيف يصنع؟!

ومن أسباب تسكين القلوب ووسائل دفع القلق والاضطراب عنها : جماع الأهل .

ووجه ذلك : أن الرجل قد يرى امرأة من النساء فيضطرب قلبه ويتشتت عليه فكره ، ويوشك أن يستحوذ عليه الشيطان ويوقعه في الحرام ، وعلاج ذلك أن يذهب الرجل إلى أهله ويجامعها فيسكن قلبه ويُرَدُّ ما في نفسه كما أخبر النبي ﷺ فيما أخرجه مسلم(١) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنهما أن رسول اللَّه ﷺ رأى امرأة فأتى امرأته زينب وهي تَمعْس(٢) مَنيئة لها فقضى حاجته ثم خرج إلى أصحابه فقال : « **إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان ، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله(٣) فإن ذلك يردُّ ما في نفسه** » .

وفي بعض الروايات عند مسلم : « **إذا أحدكم أعجبته المرأة فوقعت**

---

(١) مسلم (٣/ ٥٥٠) .

(٢) تمعس منيئة، أي : تدلك الجلد تمهيدًا لدباغته .

(٣) قال النووي رحمه اللَّه (شرح مسلم ٣/ ٥٥١) : وفيه أنه لا بأس بطلب الرجل امرأته إلى الوقاع في النهار وغيره ، وإن كانت مشتغلة بما يمكن تركه لأنه ربما غلبت على الرجل شهوة يتضرر بالتأخير في بدنه أو في قلبه وبصره ، واللَّه أعلم .

في قلبه فليعمد إلى امرأته فليواقعها فإن ذلك يرد ما في نفسه »[١]

*** الصوم والتعفف لمن لم يستطع الباءة :**

ومن لم تكن له زوجة فليصم ، ومن لم يستطع الصيام فليتعفف وليسأل ربَّه ذلك قال النبي ﷺ : « **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»[٢] .

وقال اللَّه سبحانه : ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [النور: ٣٣]

وقال النبي ﷺ : « **ومن يستعفف يعفُّه اللَّه** »[٣]

* * *

(١) مسلم (٣/ ٥٥١) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٦) ومسلم (حديث ١٤٠٠) من حديث ابن مسعود رضي اللَّه عنه مرفوعًا .

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٦٤٧٠) ومسلم (حديث ١٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه مرفوعًا .

اختيار الجليس

وللجليس الصالح عظيم الأثر في صلاح القلب ، وكذلك لجليس السوء أسوأ الأثر في قسوة القلب وقلقه واضطرابه.

وتقدم حديث رسول اللَّه ﷺ الذي أخرجه البخاري ومسلم[(١)] من حديث أبي موسى الأشعري رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال : **«مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يُحذيك وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة »** .

فالجليس الصالح دائم التذكير باللَّه ، والتماس الأعذار للمؤمنين والحث على أعمال البر والحث على ذكـــر اللَّه والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، والتواصي بالصدق، والحث على إكرام اليتيم، والحض على إطعام المساكين إلى غير ذلك ، وكـــل ذلك يتـــرك آثارًا طيبة على القلب .

ومجالسة الصالحين سبب في نجاة من جالسهم ، ففي الحديث القدسي : **« هم القوم لا يشقى بهم جليسهم »**[(٢)] .

أما جليس السوء ؛ فدائم التذكير بالمعاصي ودائم اللهو والمجون والسخرية وازدراء المؤمنين والمؤمنات وقذف الشر في قلب العبد تجاه

---

(١) البخاري (حديث ٥٥٣٤) ومسلم (٢٦٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٨) ومسلم مع النووي (١٧/ ١٤) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه مرفوعًا.

المؤمنين والمؤمنات ، فحري بالعبد أن ينتقي جلساء صالحين لمجالسه .

وحتى أهل الشر والفساد يقل شرهم بمجالسة أهل الإيمان ومخالطة أهل الإيمان قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ **الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ** ﴾ [التوبة : ٩٧]

ترى أشد كفراً ونفاقًا مِن مَنْ؟!

قال بعض العلماء : إنهم أشـــد كفــراً ونفاقًا مـــن منافقي المدينة وذلك ـ واللَّه أعلم ـ لأن المنافقين مـــن أهل المدينة اقتبسوا بعض الأخلاق من رسول اللَّه ﷺ وأصحابه ، فمع نفاقهم كانت عندهم بعض صور المراعاة للآداب العامة التي عليها المسلمون .

● وكذلك ترى مثلاً النصراني الذي يُجالس المسلمين ويعاشرهم في بلدة كمصر مثلاً ليس كالنصراني الموجود في أوساط الملاحدة كنصراني روسيا مثلاً فالأول يستحي مثلاً من الزنا بينما الثاني لا يلقي لذلك بالاً .

وفي الجملة فالمجالسات تؤثر في الجلساء وفي قلوبهم .

● ولا تقتصر المجلسة على مجالسة بني آدم ، فمجالسة الكتب واستماع الشرائط كل ذلك ينبغي أن يتحرى فيه الخير أيضًا ، ولا نجلس إلا إلى كتاب قد حوى مادة سليمة صحيحة ، ولا نستمع إلا إلى شريط يحوي مادة سليمة صحيحة مدعمة بالكتاب والسنة ، واللَّه الموفق والهادي .

* * *

دفع الظن باليقين

فإن هذا مما يريح القلب ويطمئن البال .

● قال اللَّه تعالى : ﴿إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦]

وقال سبحانه : ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]

وقال النبي ﷺ : « وإياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»(١) .

● وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]

فأمر اللَّه سبحانه وتعالى باجتناب كثير من الظن حتى يدخل في هذا الكثير البعض الذي هو إثم .

● وقال النبي ﷺ : « .. فلا ينصرف حتى يسمع صوتًا أو يجد ريحًا»(٢).

فلا يبني الشخص على شكوكٍ ، إنما يبني عمله على يقين .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٣) ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ .

(٢) أخرج البخاري (حديث ١٣٧) ومسلم (حديث ٣٦١) من طريق عباد بن تميم عن عمه أنه شكا إلى رسول اللَّه ﷺ الرجل الذي يُخيل إليه أنه يجد الشيء في الصلاة ، فقال : « لا ينفتل ـ أو لا ينصرف ـ حتى سمع صوتًا أو يجد ريحًا » .

طمأنينة القلب بورود الأدلة وتواترها

ويزداد القلبُ طمأنينة إذا تواترت الأدلـــة وتـواردت ومن ثم قال الخليل إبراهيم ﷺ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

وقال النبي ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيى الموتى » .

فحتى قلوب أهل الصلاح تطمئن للأدلة الظاهرة ، ولذلك فالوساوس تُدفع والشكوك ترتفع إذا أقبلت الأدلة وتواردت؛ قال اللَّه سبحانه وتعالى للمؤمنين في آيات الإفك . . ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور: ١٢]

فإذا لم يقو الشخص على الظن الحسن وغلبت عليه الأقاويل فليطلب حينئذ البينات والشهود ، فهي التي يبنى عليها الحكم ، قال تعالى : ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النور: ١٣]

فالظنون السيئة والشكوك التي تعتري القلوب ، كل ذلك يُدفع بإذن اللَّه ثم بطلب البينات والأدلة .

* * *

ترك الأمور المشتبهة

ومما يُريح القلب أيضًا ويجلب إليه الطمأنينة : تركُ الأمور التي تشتبه على الشخص ولا يقطع فيها بأنها حلال ، فإن هذه الأمور لا تزال تحيك في الصدر وتقلق صاحبها وتؤرق مضجعه ولا يكاد يستريح منها ، ولذلكفتركُها وتجنُّبها واتقاؤها يُريح القلب ويريح صاحبه .

أخرج مسلم[1] في «صحيحه» من حديث النواس بن سمعان الأنصارى رضي اللَّه عنه قال : سألت رسول اللَّه ﷺ عن البرِّ والإثم فقال : « **البر حُسن الخُلُق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس** » .

ومن ثمَّ قال النبي ﷺ : « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك** »[2] .

وتقدم حديث رسول اللَّه ﷺ : « **فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه** » .

* * *

(١) مسلم (حديث ٢٥٥٣) .

(٢) **صحيح** أخرجه الترمذي (٢٥١٨) وقال هذا حديث حسن صحيح ، وأحمد (١/ ٢٠٠) وهو من حديث الحسن بن علي رضي اللَّه عنهما قال : حفظت من رسول اللَّه ﷺ : « **دع ما يريبك إلى مالا يريبك فإن الصدق طمأنينة ، وإن الكذب ريبة** » .

المحافظة على قلوب الآخرين

فكما أن الشخص يحب أن يكون قلبه نظيفًا فينبغي له أن يحرص على سلامة قلوب إخوانه أيضًا ولا يتسبب في إفساد قلوبهم تجاهه ، وها هي بعض وسائل المحافظة على قلوب الآخرين :

*** من ذلك اتقاء مواطن الشبهات :**

فلا يقف الشخص مواقف تحمل المسلمين على الظن السيئ به ، وتوغل صدورهم تجاهه ويجد الشيطان منها مدخلاً إلى قلوبهم لإلقاء وساوسه وشكوكه تجاه هذا المسلم وبذر الظن السيئ في قلوبهم ناحيته .

وقد أخرج البخاري ومسلم[١] من حديث أم المؤمنين صفية زوج النبي ﷺ أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان ، فتحدثت عنده ساعة ثم قامت تنقلب فقام النبي ﷺ معها يقلبها ، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة مر رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله ﷺ ، فقال لهما النبي ﷺ : « **على رسلكما، إنما هي صفية بنت حُيَي**» فقالا : سبحان الله يا رسول الله ، وكبر عليهما . فقال النبي ﷺ : « **إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا** » .

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٠٣٥) ومسلم مع النووي (١٤/١٥٦) .

* ومن وسائل المحافظة على قلوب الآخرين :

ترك النساء الخضوع بالقول

قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]

وذلك لأن خضوع المرأة بالقول يطمع فيها الرجال الذين في قلوبهم مرض ويحملهم على الظن السيئ بها ، وأنها ما رققت لهم صوتها إلا وهي تريد منهم شيئًا ، فيجتهدون في الشر والفساد للوصول إلى ما زينه لهم الشيطان ، فكان من اللائق بالمرأة إذا احتاج الأمر إلى خطاب الرجال أن تكلمهم بصوت ليس فيه خضوع ولا ميوعة بل تخاطبهم بالقول الطيب الذي به يرضى اللَّه عز وجل عنها .

* * *

• **ومن ذلك:** قوله ﷺ : « **إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس أجلَ أن ذلك يُحزِنه** »(١) .

فالتناجي ـ تناجي الاثنين أمام الثالث ـ يُحزن ، ويقذف في القلب الوساوس ، ويقوي الظنون .

ما بالهما يتناجيان ؟! وما بالهما يتسارران ؟

لعلهما يتحدثان في شيء يؤذيني!! ، لعلهما يفكران لي في سوءٍ !!

من هنا يدخل الشيطان ، من هنا يستحوذ الشيطان على القلوب من هنا

(١) أخرجه البخاري (حديث ٦٢٩٠) ، ومسلم (٢١٨٤) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه مرفوعًا ، وفي رواية مسلم : « **من أجل أن ذلك يحزنه** » .

يقذف الشيطان شروره في القلوب .

من هنا يبدأ عمل الشيطان في إيغار الصدور وتسويد القلوب والتفريق بين المؤمنين .

* * *

ومن ذلك أيضا: أن النبي ﷺ ترك نقص الكعبة حتى لا يفتتن الناس في دينهم :

أخرج البخاري(١) ومسلم من حديث أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنهما ، قالت : قال لي رسول اللَّه ﷺ : « **لولا حداثة قومك بالكفر(٢) لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام ، فإن قريشًا استقصرت بناءه وجعلت له خلفًا** » .

وفي رواية أخرى في البخاري(٣) أيضًا : أن النبي ﷺ قال لعائشة : « **يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم** ، قال ابن الزبير - **بكفر - لنقصت الكعبة فجعلت لها بابين باب يدخل الناس وباب يخرجون** » .

* * *

(١) البخاري (١٥٨٥) ومسلم (حديث ١٣٣٣) .

(٢) في بعض الروايات في «صحيح مسلم» : « **لولا أن قومك حديثُ عهدهم في الجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر في البيت وأن ألزق بابه بالأرض** » وفي رواية أخرى في مسلم : « **مخافة أن تنكر قلوبهم** » .

هذا وقد بوَّب الإمام البخاري لهذا الحديث باب (من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه » .

(٣) البخاري (حديث ١٣٦) .

ومن ذلك : ترك المبالغة في الثنـاء علـى الأشخاص في وجوههم :

أخرج البخاري ومسلم[١] من حديث أبي بكرة رضي اللَّه عنه قال : أثنى رجل على رجلٍ عند النبي ﷺ فقال : « **ويلك قطعت عنق صاحبك قطعت عنق صاحبك (مرارًا)** » ثم قال : « **من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليقل أحسب فلانًا ، واللَّه حسيبه ، ولا أزكي على اللَّه أحدًا ، أحسب كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه** » .

وفي «الصحيح»[٢] أيضًا من حديث أبي موسى رضي اللَّه عنه قال : سمع النبي ﷺ رجلاً يثني على رجل ويُطريه في مدحه فقال : « **أهلكتم ـ أو قطعتم ـ ظهر الرجل** » .

وذلك ـ واللَّه أعلم ـ لأن المبالغة في الثناء والإطراء والمدح قد تورث العُجب والكبر في نفس الممدوح بما يحمله على التعالي على الناس والتكبر والترفع عليهم وهذا هو الغالب على أكثر الناس .

أما إذا أُمنت الفتنة على شخص وكان الثناء عليه يزيده تواضعًا ويحمله على فعل مزيد من الخيرات فلا بأس بذلك ، ومن ذلك ما ورد من ثناء النبي ﷺ على بعض أصحابه كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من الصحابة رضي اللَّه عنهم .

* * *

---

(١) البخاري (حديث ٢٦٦٢) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٦٣) .

*** ومن أسباب المحافظة على القلب وبقائه طاهراً نظيفًا : ستر وجه المرأة وسؤالها ـ إن احتاج الأمر إلى حديث معها ـ من وراء حجاب**

قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]

وقد أورد الشنقيطي رحمه اللَّه تعالى في « أضواء البيان » جملة من الوجوه استدل بها على أن حكم هذه الآية عام فيدخل فيه عموم المؤمنات كما يدخل فيه أزواج النبي ﷺ ، ثم قال :

وإذا علمت بما ذكرنا أن حكم آية الحجاب عام ، وأن ما ذكرنا معها من الآيات فيه الدلالة على احتجاب جميع بدن المرأة عن الرجال الأجانب ، علمت أن القرآن دل على الحجاب، ولو فرضنا أن آية الحجاب خاصة بأزواجه ﷺ ، فلاشك أنهن خير أسوة لنساء المسلمين في الآداب الكريمة المقتضية للطهارة التامة وعدم التدنس بأنجاس الريبة ، فمن يحاول منع نساء المسلمين كالدعاة للسفور والتبرج والاختلاط اليوم ، من الاقتداء بهن في هذا الأدب السماوي الكريم المتضمن سلامة العرض والطهارة من دنس الريبة غاشٌّ لأمة محمد ﷺ ، مريض القلب كما ترى .

* * *

دعـــاء اللّه بسلامـــة القلـوب وشفائهـا

وما ذكر كله فمن باب الأخذ بالأسباب ، والأمر كله للّه سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ [هود: ١٢٣]

وهو الذي يهدي ويوفق وهو سبحانه وحده يشفي الصدور ويُنزل السكينة على القلوب ، فجدير بالعبد أن يجعل ملتجأه إلى اللّه سبحانه وتعالى وتضرعه إليه فيكثر من التضرع والرجاء ، فإن التضرع يجلب رقة في القلب، وذلك ينافي القسوة، قال اللّه سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٤٣]

والالتزام بالدعوات الواردة في كتاب اللّه وفي سنة رسول اللّه ﷺ والمحافظة عليها شيء له عظيم الأثر في سلامة القلوب ونجاة أصحابها.

ومن هذه الدعوات ما يلى :

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨]

وقوله ﷺ : « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك »(١) .

وقوله : « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»(٢) .

- وقوله ﷺ : « .. اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع ومن قلبٍ لا

---

(١) ، (٢) كلاهما صحيح وقد تقدم .

يخشع ومن نفسٍ لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها »[١] .

● وفي « سنن أبي داود »[٢] من حديث شكل بن حميد قال : قلت: يا رسول اللَّه علمني دعاءً ، قال : « **قل اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي ومن شر بصري ومن شر لساني ومن شر قلبي ومن شر منيي**» .

وثم دعوات أُخر قدمنا بعضها في هذا الكتاب .

* * *

---

(١) **صحيح**. وقد أخرجه مسلم مع النووي (١٧/ ٤١) من حديث زيد بن أرقم رضي اللَّه عنه مرفوعًا .

(٢) أبو داود (٢/ ١٩٣) وإسناده حسن .

الخاتمة

وبهذا القدر نكتفي ، وما كان في هذه الرسالة من صواب فمن اللَّه وحده فله سبحانه النعمة والفضل وله الثناء الحسن ، وما كان فيها من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان ، واللَّه رسوله بريئان منه .

وأسأل اللَّه سبحانه أن يصلح بهذه الرسالة قلبي وقلوب عباده المؤمنين وأن يقذف فيها الهدى والتقى والعفاف والغنى وأن يُزيد فيها الإيمان وأن يثبتها على دينه ، وأسأل اللَّه أن يجازينا والمؤمنين على الإحسان إحسانًا وعلى السيئات مغفرة وعفوًا كما نسأله سبحانه أن يُحل علينا رضوانه فلا يسخط علينا بعده أبدًا .

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه

والحمد للَّه رب العالمين

كتبه

أبو عبد اللَّه / مصطفى بن العدوى شلبايه

مصر - الدقهلية - منية سمنود

الفهـــــــرس

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

* * *

مركز الصحيفة للطباعة والكمبيوتر
تليفاكس ٢٩٧٨٤٧٤ القاهرة